

التربية والتعليم في مكة المكرمة

في عهد الخلفاء الراشدين

أ.د. طالب بن صالح العطاس (*)

• مقدمة:

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه يحب ربنا ويرضى والشكر له على ما أدى من نعم سابغة، وأسدى، أحمده سبحانه، وهو الولي الحميد، وأتوب إليه جل شأنه، وهو التواب الرشيد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له شهادة نستجلب بها نعمه، ونستدفع بها نقمه، وندخرها عدة لنا...

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، صلى الله عليه، وعلى آله نجوم المهتدين، ورجوم المعتدين. ورضي الله عن صحابته الأبرار الذين قاموا بحق صحبته، وحفظ شريعته، وتبليغ دينه إلى سائر أمته فكانوا خير أمة أخرجت للناس.. أما بعد:

ففي النصف الأول الهجري وثب المسلمون وثبة ملأوا فيها الأرض قوة وبأسا، وحكمة وعلماء، ونورا وهداية، وتركوا دينهم، وشرعيتهم، وعلمهم وأدبهم، تدين لها القلوب، وتتقلب بها الألسنة، وتحقق فيهم الأنموذج الفريد، والمثال الأعلى للبشرية باعتبارهم خير أمة أخرجت للناس، وذلك كله بسبب أن الإسلام رفع قدر العلم، واهتم به وبحماته، فحث من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة على التعليم والتعلم، كما احترم العلماء ومجدهم، ورفع منزلتهم في الدنيا ودرجاتهم في الآخرة.

فأصبح العلم في زمن الخلفاء الراشدين هو الحاكم على الممالك،

(*) أستاذ مساعد بقسم أصول التربية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة.

والسياسات والأموال والأقلام، فملك لا يتأيد بعلم شرعي لا يقوم، وسيف بلا علم مخراق لاعب، وحركة بلا علم حركة عابث.

ويعد الحجاز في عهد الخلفاء الراشدين أكبر مركز علمي وأهم معقل للعلماء والفقهاء في العالم الإسلامي، بل إن باقي المراكز العلمية في المدن والأمصار الأخرى تستمد منه قوتها العلمية ومعارفها الشرعية.

وكون البحث متعلقاً بالتربية والتعليم في مكة في العهد الراشدي، هذا يعني أن مكة في التربية والتعليم تابعة للمدينة - في هذا العصر - بل هي من المدينة كالفرع من الأصل، فكون مكة قد فتحت في السنة الثامنة من الهجرة النبوية، فالمدينة هي الموطن الأصلي للعلم، ويوجد فيها أهل العلم أكثر من غيرها؛ لكونها عاصمة الإسلام الأولى، لسكنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته بها، فلم يغادرها كثير منهم بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

فالتربية والتعليم بها - أي المدينة - أكثر وأوفر من أي بلد آخر، فاستمدت مدرسة مكة منها، بل هما في الحقيقة شيء واحد فما استوت مدرسة مكة إلا على مدرسة المدينة بل إن المؤسس الأول لمدرسة مكة هو عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - إنما هو مدني بالأصل، وكان طوال مدة إقامته بمكة متردداً على المدينة، حتى صار علماء مكة يتفاضلون فيما بينهم في السماع من أهل المدينة.

روى الفسوي عن مالك بن أنس قال: قال عمرو بن دينار ومجاهد وغيرهما من أهل مكة: (لم يزل شأنا متشابهاً، متناظرين حتى خرج عطاء بن أبي رباح إلى المدينة، فلما رجع إلينا استبان فصله علينا)^(١).

(١) يوسف المزي - تهذيب الكمال في أسماء الرجال -، تحقيق: بشار عواد معروف،

مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، بيروت، لبنان، ٧٨/٢٠.

• موضع البحث:

يُعد الحجاز في القرن الأول الهجري أكبر مركز علمي وأهم معقل للعلماء والفقهاء في العالم الإسلامي كله، ولا يدانيه في هذه المكانة مصر من الأمصار الإسلامية آنذاك، بل باقي المراكز العلمية تستمد قوتها العلمية ومعارفها الإسلامية منه.

وقد كان النصف الأول من ذلك القرن هو المرتكز الذي منه انطلقت علوم الشريعة وذلك بسبب جهود صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رضي الله عنهم أجمعين، ثم جاء من بعدهم من التابعين وأتباعهم في القرن الثاني، وقد انتظمت جهود هؤلاء الثلاثة في حركة علمية واسعة الانتشار، حيث احتضنت كبار العلماء وجهابذة النقاد وفطاحل الفقهاء والمفتين الذين تركوا آثارهم واضحة جليلة في العلوم بعامة وعلوم الشريعة بخاصة، فأصبحت جهودهم منارا للهدى يقتفى، وشعارا للحق يتبع. فلذلك عرفت البلدان والأمصار التي سكنها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفاء العقيدة، والبقاء على أصول الدين الصحيحة والتمسك الظاهر بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، بل أصبح كل مصر من الأمصار مشتهرا بعلم ويفن من فنون الشريعة الغراء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: (فإن أعلم الناي بالمغازي أهل المدينة ثم أهل العراق. فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم، ولهذا عظم الناس كتاب أبي إسحاق الفزاري.. وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس...) (١).

(١) تقي الدين أحمد بن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، منشورات دار مكتبة الحياة،

بيروت، لبنان، ١٩٨٠م، ص ٢٣-٢٤.

وقال في موضع آخر (فأما الأعصار الثلاثة المفضلة فلم يكن فيها بالمدينة بدعة ظاهرة البتة، ولا خرج فيها بدعة في أصول الدين البتة، كما خرج في سائر الأمصار، فإن الأمصار الكبار التي سكنها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج منها العلم والإيمان خمسة: الحرمان، العراقان، والنسام؛ منها خرج القرآن والحديث والفقه والعبادة وما يتبع ذلك من أمور الإسلام)^(١).

ولما كان لمكة من الفضل العظيم حيث أنها أم القرى، ومنبع الوحي، ومهد الرسالة، والتي لا يجهل فضلها ومكانتها أحد من المسلمين، ولما نالته من الشرف والريادة حتى أصبحت مركزاً فكرياً وعلمياً وتربوياً يلتقي فيه علماء المسلمين مع بعضهم بعضاً.

كما يلتقي الطلاب بالعلمين، أضف إلى ذلك موسم الحج بما يعقد أثناءه من دروس ولقاءات علمية وتربوية... كل ذلك وغيره جعل مكة بلد الله الحرام جدير بالاهتمام من قبل الباحثين علمياً وتربوياً وتاريخياً واجتماعياً وثقافياً...

لذا جاء هذا البحث ليدرس عن التربية والتعليم في مكة في عهد الخلفاء الراشدين؛ وليوضح الوضع التربوي والتعليمي وليكشف عن العوامل التي ساعدت على انتشار التعليم فيها ويسلط الضوء على المؤسسات التعليمية القائمة في تلك الحقبة التاريخية متناولاً المعلمين والمتعلمين وأشهر وأبرز العلوم المنتشرة في هذه البلاد المقدسة.

(١) تقي الدين أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، مكتبة ابن تيمية لطباعة ونشر الكتب

السلفية، القاهرة، مصر، (د.ت)، ٢٠/٣٠٠-٣٠١.

• أهمية البحث:

مما يعطي لموضوع البحث أهمية ما يلي:

١- أن مكة في القرن الأول الهجري كانت مركزا للعلم والعلماء بعد المدينة المنورة، وكان لها أثر كبير في جميع مجالات العلوم الإسلامية وبالأخص علوم القرآن (إقراء وتفسيرا)، فهذا مجاهد بن جبر قد عرض القرآن على ابن عباس ثلاث مرات يوقفه عن كل آية يسأله عنها: فيم أنزلت وفيه^(١) كانت، لذا قال سفيان الثوري: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به»^(٢). وقال أيضا: «خذوا التفسير من أربعة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك بن مزاحم»^(٣).

وبوجود هؤلاء العلماء الكبار بمكة والذين هم ثمرة مدرسة ابن عباس رضي الله عنهما، صار أهل مكة أعلم الناس بتفسير القرآن الكريم. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس»^(٤).

٢- أهمية هذه الفترة بالنسبة لدراسة علوم القرآن والسنة النبوية، فقد كان للعلماء الأعلام سواء الذين عاشوا بمكة أو مكثوا فيها بضعا من السنين -

(١) عبد الله بن عبد الرحمن الدارمس، سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي والخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٧٣/١، رقم (١١٢٠).

(٢) محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، «جامع البيان في تأويل القرآن»، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٢، ٤٠/١.

(٣) أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ٣/٣٢٩-٣٣٠.

(٤) تقي الدين أحمد بن تيمية، في أصول التفسير، مرجع سابق، ص ٢٤.

أثراً بالغاً في الحركة العلمية - لكون مكة لها مكانة دينية عظيمة في نفوس المسلمين - فهي مأواً ومثابة للناس وخاصة أهل العلم، فهم يرتحلون إليها لأداء مناسك الحج والعمرة أولاً، ولللقاء علمائها ثانياً، فصارت ملتقى علمياً، وحلقة وصل بين كثير من علماء العالم الإسلامي في مواسم الحج والعمرة، فأثروا بذلك الحركة العلمية فيها، ونما العلم وانتشر منها إلى سائر الأمصار الإسلامية.

٣- أهمية هذه الفترة الزمنية - عهد الخلفاء الراشدين - لكونها تم تطبيق الإسلام كاملاً وما نتج عن ذلك من مظاهر الحياة الكاملة التي تتسم بالقوة من غير عنف وباللين من غير ضعف، وبالعسرة على الكافرين وبالذلة والتواضع للمؤمنين وبالعدل من غير ظلم، ولكون هذا العهد عهد الفتوح الإسلامية الكبرى، حيث تم القضاء على دولة الفرس التي كانت دولة العالم العظمى في المشرق، كما تم فتح عدد من الأقاليم التي تكونت فيها دولة الروم التي كانت دولة العالم العظيمة في المغرب.

• أهداف البحث:

الهدف الرئيس من البحث: دراسة واقع التربية والتعليم في مكة في عهد الخلفاء الراشدين:

ويتفرع من الهدف الرئيس أهداف فرعية:

١- إيضاح العوامل المؤثرة والتي ساعدت على انتشار التعليم في مكة في عهد الخلفاء الراشدين.

٢- بيان المؤسسات التعليمية في مكة والقائمة في عهد الخلفاء الراشدين.

٣- التعرف على المعلمين من الصحابة في مكة في عهد الخلفاء الراشدين.

٤- التعرف على المتعلمين من التابعين في مكة في عهد الخلفاء الراشدين.

٥- الإطلاع على العلوم المنتشرة في مكة في عهد الخلفاء الراشدين.

• أسئلة البحث:

السؤال الرئيس من البحث: ما واقع التربية والتعليم في مكة في عهد الخلفاء الراشدين؟

وينفرع من السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية التالية:

١- ما العوامل المؤثرة والتي ساعدت على انتشار التعليم في مكة في عهد الخلفاء الراشدين؟

٢- ما المؤسسات التعليمية القائمة في مكة في عهد الخلفاء الراشدين؟

٣- من هم المعلمون والمتعلمون في مكة في عهد الخلفاء الراشدين؟

٤- ما العلوم المنتشرة في مكة في عهد الخلفاء الراشدين؟

• محددات البحث:

ليس المقصود من هذه الدراسة تناول هذه الفترة من حيث السرد التاريخي لأحداثها ووقائعها، وليس الغرض أيضا مجرد ذكر العوامل والتراجم والطبقات.

كل ذلك ليس غرضا أوليا لهذه الدراسة وإن مثل بعض ذلك جزءا من الدراسة وإنما الغرض الأساس والهدف الرئيس هو بيان الجهود التربوية

والتعليمية لأهل مكة وعلمائها من الصحابة التابعين وما قاموا به من جهد متميز في وضع اللبانات الأولى لعلوم الشريعة، وما لهم من تأثير كبير في غيرهم من علماء الأمصار الإسلامية.

لذا كانت محددات البحث ما يلي:

• يختص البحث بالحركة العلمية في أحب بقاع الأرض إلى الله عز وجل مكة (بلد الله الأمين).

• يقتصر البحث على الفترة الزمنية من الخلافة الراشدة (١١١ - ٤٤٠هـ).

• دراسة تراجم كبار الصحابة رضي الله عنهم كبار التابعين ممن تتلمذوا في هذه الفترة الزمنية المذكورة.

• يركز البحث على الجوانب التربوية والتعليمية والعلوم المتفرعة منها فقط.

• منهج البحث وخطته :

يستخدم الباحث: المنهج التاريخي، لإلقاء الضوء على القوى والعوامل والمتغيرات التي أثرت في الحركة العلمية في مكة وذلك من خلال ما كتب عن الفترة التي عاشها الخلفاء الراشدين مع ترجمة لأبرز الشخصيات العلمية والتربوية وتحليل وسائلهم ومناهجهم التربوية التعليمية.

وقد جاء البحث في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة وفهرسين على النحو الآتي:

• الفصل الأول: العوامل التي ساعدت على انتشار التعليم في مكة في عهد الخلفاء

الراشدين:

- دينية.
- سياسية.
- ثقافية.
- اقتصادية.
- جغرافية.
- سكانية.
- اجتماعية.

تمهيد:

مثل العوامل الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية والجغرافية نسيج تكوين الحضارة حيث تسهم في تشكيل المجتمع وتعمل على وضع آخر للأفراد والمجتمعات، وتضعه في قوالب وأنماط تسهل الاتصال والتعامل مع مستجدات الحياة ومتغيراتها خصوصاً في ظل الانفتاحات الحضارية مع المجتمعات الأخرى، وقد مرت التربية في أشكال مختلفة في الطور الأول في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ثم بدأ الطور الثاني وإن كان غير منفك عن الأول إلا أنه تمثل في تكوين الحضارة الإسلامية وامتزاجها بحضارة الشعوب الأولى خصوصاً في ظل الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين.

وهذا الأمر له تأثيره القوي على العملية التربوية والتعليمية، فالتربية بطبيعتها عملية مشروطة بالزمان الذي تجري فيه والمكان التي تحدث فيه،

ومن ثم تنعكس عليها ظروف هذا الزمان وأحواله والمكان وظروفه، فعلى كل دارس للتربية أن يلم بظروف العصر وعوامله حتى يصل إلى المزيد من الفهم وكثير من الوعي بحركة التربية في أي مجتمع من المجتمعات.

وإذا كانت دراسة حركة التربية والتعليم في عهد عصر الخلفاء الراشدين وبالتحديد في مكة تتطلب النظر إلى مراحل تطورها فلا بد للباحث أن يكشف عن أهم العوامل التي أثرت في هذه الحركة العلمية بقدر المستطاع لتكون - بإذن الله - منطلقاً للوصول إلى ثمرات التربية الأصيلة وربط الماضي الأصيل بالحاضر المتجدد.

أولاً: العوامل الدينية:

حظيت مكة قبيل الإسلام باحترام كبير لدى عرب الجزيرة العربية لأهميتها الدينية، فهذا الوليد بن المغيرة قد خلع نعليه لدخول الكعبة في الجاهلية فخلع الناس نعالهم في الإسلام^(١).

فجاء الإسلام وزاد البلد الحرام تعظيماً وتشريفاً إذ بعث الله فيه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وجعل الكعبة المشرفة قبلة للمسلمين ومثابة وأمناً.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

(١) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ٣٠٧.

قال مجاهد وسعيد بن جبير: «يأتون إليه من كل جانب ويحجون»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معاذاً وملجأ، وقال قتادة وعكرمة: مجمعا^(١). ومن خلال هذا المطلب سيوضح الباحث بصورة موجزة عن أهم العوامل الدينية التي أثرت على الحركة العلمية في مكة في عهد الخلفاء الراشدين، والتي منها:

(١) الحج والعمرة:

جاءت النصوص الشرعية مرغبة في الحج والعمرة ومتابعتها والإكثار منهم.

قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَرِّمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

قال مجاهد: قام إبراهيم على مقامه، فقال: يا أيها الناس أجيئوا ربيكم، فقالوا: لبيك اللهم لبيك، فمن حج اليوم فهو ممن أجاب إبراهيم يومئذٍ، وقال في رواية أخرى: قال إبراهيم كيف أقول يارب؟ قال "قل يا أيها الناس استجيئوا لربكم، قال: وقرت في قلب كل مؤمن وأما قوله: «ليشهدوا منافع لهم» قال سعيد بن جبير: التجارة، وعن ابن عباس قال: الأسواق، وقال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال بالصواب قول من قال ليشهدوا منافع لهم من العمل الذي يرضي الله والتجارة، وذلك أن الله عم لهم المنافع ما يشهد له

(١) الحسن بن مسعود البغوي، تفسير البغوي «معالم التنزيل»، تحقيق: عثمان جمعة

ضميرية وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ١٤٠٩هـ،

المواسم، ويأتي له مكة أيام المواسم من منافع الدنيا والآخرة، ولم يخصص من ذلك شيئاً من منافعهم بخبر ولا عقل، فذلك على العموم في المنافع التي وصفت»^(١)، وما ذكره الإمام الجليل ابن جرير في أن عموم المنافع تحصل من خلال الحج ومنها على سبيل المثال لا الحصر منافع العلم والتعلم، لذا كثير من القادمين للحج أو العمرة أوقاتهم في طلبهم للعلم ومجالسة العلماء ومذاكرتهم ومحاورتهم، ففي كل موسم يحل في رحاب مكة فوج من علماء الأمصار الإسلامية فضلاً عن سواهم من طلاب العلم، ونجد كثيراً من علماء السلف وطلاب العلم يكثر من متابعة الحج والعمرة لنيل الأجر أولاً، ولتحصيل المنافع المشهودة في ذلك المكان المبارك، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس لحجة المبرورة ثواب إلا الجنة»^(٢)، فعندما تجتمع الأجناس المتعددة المشارب والمتباينة في الثقافات سوياً في مكة وعلى صعيد المشاعر يحدث أثراً علمياً كبيراً في ذلك الزمان.

عن علقمة قال: جاء رجل إلى عمر وهو بعرفة فقال: جئت يا أمير المؤمنين من الكوفة وتركت بها رجل يملئ المصاحف عن ظهر قلب، فغضب عمر، وانتفخ حتى كاد يملأ بين شعبتي الرجل فقال: ومن هو ويحك؟

(١) محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ١٢٤/٩-١٣٧ باختصار.

(٢) محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الصحيح «سنن الترمذي» تحقيق أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، لبنان، (د.ت)، كتاب الحج، باب ما جاء في ثواب الحج والعمرة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب ١٧٥/٣ رقم (٨١٠).

فقال: ابن مسعود. فما زال يطفئ غضبه، ويتسرى عنه حتى عاد إلى حاله، ثم قال: ويحك والله ما أعلم بقي من الناس أحد هو أحق بذلك منه، وسأحدثك: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال يسمر عند أبي بكر الليلة كذلك في الأمر من أمر المسلمين وأنه سمر عنده ذات ليلة وأنا معه، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجنا معه، فإذا رجل قائم يصلي في المسجد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع قراءته، فلما كدنا أن نعرفه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سره أن يقرأ القرآن رطبًا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أ عبد» قال: ثم جلس يدعو، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سل تعطه فقلت: والله لأغدون إليه فلاأبشره، قال: فغدوت فوجدت أبا بكر قد سبقني! (١).

عن أبي وائل قال: خطب بنا ابن عباس، وهو أمير على الموسم، فافتتح سورة النور، فجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثل هذا، ولو سمعته فارس، والروم، والترك، لأسلمت» (٢).

وهكذا نجد أن مواسم الحج والعمرة كانت فرصة لتلقي العلم والفتوى ولتأكيد وتثبيت كثير من النصوص، ومن ذلك ما ذكره ابن عبد البر: حج عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فمر بالمدينة، فجلس يحدث بها، فسمعه عروة بن الزبير يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله لا يترع العلم من الناس انتزاعًا، ولكن يقبض العلماء فيرتفع

(١) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الارنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٨، ١٤١٢هـ — ١٩٩٢م، ١/٤٧٥-٤٧٦.

(٢) محمد بن أحمد الذهبي، المرجع السابق، ٣/٣٥١.

العلم معهم، ويبقى في الناس رؤوساً جهالاً يفتونهم بغير علم فيضلون ويضلون» فحدث عروة خالته أم المؤمنين عائشة بهذا الحديث، بعد رحيل عبد الله بن عمرو عن المدينة، فشكت فيه أم المؤمنين، فلما كان العام التالي حج ابن عمرو فقالت عائشة لعروة: يا ابن أختي، انطلق إلى عبد الله، فاستثبت لي منه الحديث الذي حدثتني به عنه، فجاء عروة، فسأل عن ابن عمرو فحدثه به - كما ذكره أول مرة - فرجع فأخبر أم المؤمنين، فعجبت، وقالت: والله لقد حفظ عبد الله ابن عمرو»^(١).

وكان سعيد بن جبير يجمع المسائل التي تكون موضع خلاف بين علماء الكوفة ويعرضها على ابن عمرو عندما يلقاه في موسم الحج^(٢).

وفي موسم الحج يحرص كثير من التابعين للالتقاء بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لينهلوا من علمهم وعلومهم، عن سليمان بن الربيع قال: انطلقت في رهط من نساك البصرة إلى مكة فقلنا لو نظرنا رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتحدثنا إليه: فدللنا على عبد الله بن عمرو بن العاص فأتينا منزله فإذا قريب من ثلاثمائة راحلة، قال فقلنا: على كل هؤلاء حج عبد الله بن عمرو؟ قالوا: نعم هو ومواليه وأحبابه، قال فانطلقنا إلى البيت فإذا نحن برجل أبيض الرأس واللحية بين برديين قطريين عليه عمامة ليس عليه قميص. قال فقلنا: أنت عبد الله بن عمرو، وأنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجل من قریش، وقد قرأت الكتاب

(١) يوسف بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ١٠٧٣/٢.

(٢) محمد بن سعد بن منيع الزهير، الطبقات الكبرى، دار إحياء التراث العربي، أعد فهارسها رياض عبد الله عبد الهادي، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ٤٨٦/٦.

الأول وليس أحد نأخذ عنه أحب إلينا، أو قال أعجب إلينا منك، فحدثنا بحديث لعل الله أن ينفعنا به، فقال لنا: من أنتم؟ فقلنا: من أهل العراق، فقال: إن من أهل العراق قومًا يكذبون ويكذبون ويسخرون، قال فقلنا: ما كنا لنكذبك ولا نكذب عليك ولا نسخر منك حدثنا بحديث لعل الله أن ينفعنا به، فحدثهم بحديث في بني قنطور بن كركز^(١).

وكان لأمهات المؤمنين دورًا في إثراء الحركة العلمية في الحج، فحرض النسوة على التلقي منهن مثل الرجال - فالنساء شقائق الرجال - فكن يقصدنهن للسماع منهن، وسؤالهن فيما التبس عليهن من أمر الدين، عن صهيبة بنت جعفر قالت: حججنا ثم انصرفنا إلى المدينة، فدخلنا على أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها، فوافقنا عندها نسوة من أهل الكوفة، فقلن لهن: إن شئتن سألتن وسمعنا، وإن شئتن سألنا وسمعتن، فقلنا: سلن فسألن عن أشياء من أمر المرأة وزوجها ومن أمر المحيض ثم سألن عن نبيذ الجر، فقالت صفية: أكثرتم علينا يا أهل العراق في نبيذ الجر، وما على إحداكن أن تطبخ تمرها، ثم تدلكه، ثم تصفيه، فتجعله في سقائها وتوكل عليه، فإذا طاب شربت وسقت وزجها، ثم قالت: حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيذ الجر^(٢).

ومن الجدير بالإشارة إليه ما كان من دور للخلفاء الراشدين في أثناء مشاركتهم وأدائهم للحج والعمرة في الفتوى وإفادة الناس وتعليمهم أمور دينهم، فقد ذكر الفاكهي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه جاء ذات يوم

(١) المرجع سابق، ٤/٤٥٤.

(٢) أحمد بن حنبل الشيباني: مسند الإمام أحمد، مؤسسة قرطبة، القاهرة، مصر، (د.ت)،

٣٣٧/٦، (٢٦٩٠٧).

فقال: ألا تسألون من أين جئت؟ ما زلت قائماً على باب الجنة يعني: تحت الميزاب^(١).

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه ممن نشر علم القراءات في موسم الحج وممن أخذ منه عبد الله بن عامر عندما حج مع والده وهو صغير^(٢). وكان عمر يحدث عن أخبار المغازي والسير في رحلته للحج فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا مع عمر بن الخطاب بين مكة والمدينة فأخذ يحدثنا عن أهل بدر^(٣).

وكان أبو بكر رضي الله عنه يمارس في خلافته وفي أثناء حجه التوجيه وبيان ما التبس على الناس من بعض أمور الجاهلية فعن أبي حازم قال: «دخل أبو بكر على امرأة من أحمر يقال لها زينب فرآها لا تكلم، فقال: مالها لا تكلم؟ قالوا: حجت مصمته، قال لها: تكلمي فإن هذا لا يحل، هذا من عم الجاهلية...»^(٤). ومما سبق تبين أن موسم الحج بالإضافة إلى العمرة يُعد رافداً مهماً وعاملاً مؤثراً في الحركة العلمية في مكة.

(١) محمد بن إسحاق الفاكهي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ٢/٢٩٢.

(٢) يقول الإمام الذهبي: «وروي أنه سمع قراءة عثمان بن عفان، فلعل والده حج به فتهياً له ذلك» محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ٥/٢٩٢.

(٣) أحمد بن علي بن شعيب النسائي، سنن النسائي، بشرح الشيخ الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار المعرفة ببيروت، لبنان، ط٤، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ٤/٤١٦، (٢٠٧٣).

(٤) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، حقق بعض أجزاءه عبد العزيز بن بار، ورقم كتبها وأبوابها محمد فؤاد عبد الباقي، دار السلام، الرياض، السعودية، دار الفيحاء، دمشق، سوريا، ط٣، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ١٨٦/٧ (٣٨٣٤).

(٢) المسجد الحرام - مكة بلد الله الحرام -

لا يخفى على أي باحث عن الفضائل المتعددة والجمّة للمسجد الحرام، ولعل الباحث يسطر في نقاط موجزة عن هذه الفضائل والتي حرص عليها المسلمون لينالوا أجرها ويلتمسوا بركتها ومن ذلك:

• تعظيم حرمة بيت الله الحرام:

عن عباس بن أبي ربيعة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها فإذا تركوها وضيعوها هلكوا»^(١)، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم من خيرية الأمة تعظيمها للبدل الحرام، وإن من أسباب هلاكهما ضياعها لتعظيم بلد الله المحرم، وقد ذكر الإمام البخاري: باب فضل الحرم، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمرْتُ أَنْ أعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

وقوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ تُنْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

• مكانة مكة عند النبي صلى الله عليه وسلم وعند الصحابة رضوان الله عليهم:

عن عبد الله بن عدي بن الحمراء قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه

(١) أحمد بن عبد الرحمن البنا، الفتح الرباني، ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني، درا

الشهاب، القاهرة، مصر، (د.ت)، ٢٣/٢٤٤.

وسلم واقفاً على الحزورة فقال: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت»^(١).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت منك ما سكنت غيرك»^(٢).

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة هو وأبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كُلُّ امرئٍ مصبِّحٌ في أهلهِ والموت أدنى من شراكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا انقشعت عنه رفع عقيرته وقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفتحٍ وعندي أنخر وجليل

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ٥٦٧/٣.

(٢) المرجع السابق، ٦٨٠-٦٧٩/٥، رقم (٣٩٢٦)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح، وقال الإمام نقي الدين الفاسي «وحديث عبد الله بن عدي هو حجة القائلين بأفضلية مكة على غيرها من البلاد والأماكن... وممن قال بأفضلية مكة على غيرها من البلاد الإمام أبو حنيفة والشافعي وابن حنبل في أضح الروايتين عنه وابن رجب وابن حبيب من المالكية، وقال العبدى: إنه مذهب أكثر الفقهاء، وقال ابن عبد البر: عن ذلك يروى عن ابن عمر وعلي وابن مسعود وأبي الدرداء وجابر وغيرهم من الصحابة، وهم أولى أن يقتلوا ممن جاء بعدهم... وحسبك بفضل مكة أن فيها بيت الله الذي رضي ببط الأوزار للعبادة بقصده بالعمرة مرة ولم يقبل من أحد منهم صلاة إلا باستقبال جهته إن قدر على التوجه إليها وهي قبلة المسلمين أحياء وأمواتاً»، محمد بن أحمد الفاسي، شفاء الغرام، بأخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية، (د.ت)، ٧٨/١.

وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل تبذن لي شامة وطفيل
«اللهم العين شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأميرة بن خلف كما
أخرجونا من مكة»^(١).

وقال ابن أم مكتوم وهو آخذ بزمام ناقه رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو يطوف:

يا حبذا مكة من وادي أرض بها أهلي وغوادي
أرض بها ترسخ أوتادي أرض بها أمشي بلا هادي^(٢)
وقالت عائشة رضي الله عنها: «لولا الهجرة لسكنت مكة فلإني لم أر
السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة، ولم يطمئن قلبي ببلد قط ما
أطمأن بمكة، ولم أرق القمر بمكان أحسن منه بمكة»^(٣).

• كون مكة لا يدخلها الدجال:

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
«الدجال يطوي الأرض كلها إلا مكة والمدينة»^(٤).
وقال مجالد: فأخبرني عامر قال: ذكرت للقاسم بن محمد فقال القاسم:

(١) ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ -
١٩٨٤م، ٢١٢/٥.

(٢) المرجع السابق، ٢١٢/٥.

(٣) المرجع السابق، ٢١٢/٥.

(٤) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار: تحقيق: محمد
عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م،
١٨١/٩.

أشهد على عائشة لحدثتني هذا الحديث غير أنها قالت: الحرمان عليه حرام: مكة والمدينة»^(١).

• كون مكة لا يدخلها الطاعون:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة على كل نقب منها ملك، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون»^(٢)(*).

• فضل صاع مكة ومدّها:

عن عبد الله بن زيد بن عاصم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة وإني دعوت في صاعها ومدّها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة»^(٣).

• كون المسجد الحرام ممن يشد إليه الرحال:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا

(١) المرجع السابق ١٨٦/٩.

(٢) أحمد بن عبد الرحمن البنا، مرجع سابق، ٢٤٤/٢٣.

(*) النقب: هو الطريق بين الجبلين، وقد أورد الإمام أحمد الحديث بأسانيد مختلفة انظر المرجع السابق ٢٤٤/٢٣.

(٣) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: خليل الميس، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ١٤٢/٩ - ١٤٣، وقال النووي في الحديث «دليل لمن يقول إن تحريم مكة إنما هو كان زمن إبراهيم عليه السلام والصحيح أنه كان يوم خلق السموات والأرض....».

تشدد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى^(١).

• كون الصلاة في الحرم تعدل بمائة ألف صلاة.

عن عطاء بن أبي رباح قال: جاء الشريد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني نذرت إن فتح الله عليك أن أصلي في بيت المقدس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «ها هنا فصل» ثم عاد حتى قال مثل مقالته هذه ثلاث مرات، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول «ها هنا فصل» ثم قال له في الرابعة: «أذهب فوالذي نفسي بيده لو صليت ها هنا لأجزأ عنك: ثم قال: صلاة في هذا المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة»^(٢).

• فضل الطواف في البيت العتيق:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الكعبة محفوفة بسبعين ألفاً من الملائكة، يستغفرون لمن طاف بها ويصلون عليها»^(٣). وحدثنا محمد بن أبي عمرو سمعته يقول: لم أرَ أحداً أعبد من وكيع إلا الفضيل بن عياض، ولقد كان وكيع يطوف بالليل والنهار حتى تورم رجلاه^{(٤)(*)}.

(١) المرجع سابق، رقم (١٣٩٧)، كتاب الحج، باب لا تشدد الرجال إلا في ثلاثة مساجد، ١٧٧/٩.

(٢) عبد الرزاق بن همام الصنعاني - مصنف عبد الرزاق - تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ٤٥٦/٨.

(٣) المرجع السابق ١٦٩/١.

(٤) محمد بن إسحاق الفاكهي، مرجع سابق، ١٩٦/١.

(*) وقد صحح الشيخ الألباني حديثاً في صحيح ابن ماجه (٢٣٩٣) وصحيح الجامع عن عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من طاف بالبيت، وصلى ركعتين كان كعتق رقبة».

• فضل النظر إلى الكعبة.

عن عطاء وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله عز وجل في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة تنزل على هذا البيت، فستون للطائفين، وأربعون للراكعين، وعشرون للناظرين»^{(١)(*)}.

• فضل استلام الحجر الأسود والركن اليماني.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن مسح الركن اليماني والركن الأسود يحط الخطايا خطأ». وقال إبراهيم عن أبي مرة الجزري قال: كنت أنا وسالم بن عبد الله مزاحم لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما على الركن حتى يستلمه «وقال سفيان: وقال غير إبراهيم: كان سالم لو زاحم الإبل لزاحمها»^(٢).

• فضل الملتزم.

عن أبي الزبير قال: «رأيت عبد الله بن عمر وابن عباس وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم يلتزمون»^(٣). وعن حنظله قال: «رأيت طاووسًا يستعيز بين الركن اليماني والباب»^(٤).

(١) محمد بن إسحاق الفاكهي، المرجع السابق، ١٩٨/١-١٩٩.

(*) قال الشيخ الألباني في حاشية سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢٢٣/١): «فلولا عنعنة ابن جريج فإنه مدلس لحكمت على هذا السند بأنه حسن» ويقول محمد الغبان في كتاب فضائل مكة «إسناد محتمل التحسين» ٦٥٤/٢.

(٢) المرجع السابق، ١٢٧/١-١٢٨.

(٣) المرجع السابق، ١٦٦/١.

(٤) المرجع السابق، ١٦٥/١.

• يوجد بها خير ماء على سطح الأرض:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم.. الحديث»^(١). وبناءً على هذه المعطيات السابقة وغيرها كما سيأتي - شهدت مكة خلال هذه المرحلة والتي تليها توافد عدد من علماء الصحابة رضوان الله عليهم - مما جعل بعض الزائرين لأداء مناسك الحج والعمرة يفضلون البقاء في مكة عن موطن إقامتهم كطاووس بن كيسان وعطاء بن رباح.

ثانياً: العوامل السياسية:

مر عهد الخلفاء الراشدين ببعض مظاهر الاستقرار السياسي كما عانى هذا العصر ببعض الاضطرابات السياسية ومن أهمها:

حروب الردة، ومقتل عمر، ومقتل عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وما عقبها من فتنة الجمل، وصفين، وخروج الخوارج، ومقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومن خلال هذا المبحث سيركز الباحث على أهم العوامل السياسية التي كان أثرها في إثراء الحركة العلمية في الدولة الإسلامية بصفة عامة وفي مكة بصفة خاصة، ومنها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر:

(١) تأسيس نظام تشريعي وإداري وسياسي للخلافة والحكم:

وهذا النظام لم يأت بدعاً من القول وإنما جاء من هدي النبي صلى الله

(١) محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، المكتب الإسلامي، الدار السلفية للنشر والتوزيع، الكويت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ٤٤/٣ - ٤٥، رقم (١٠٥٦).

عليه وسلم وإدارته للدولة الإسلامية الناشئة، فأخذ عنه صحابته رضوان الله عليهم هذا التشريع وقاموا بتطويره والارتقاء به بعد أن أكملت الشريعة الغراء.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

فبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، قام أبو بكر خطيباً في الناس بعدما بايعوه فقال: «أما بعد أيها الناس فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع إليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم حتى عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله...»^(١).

تضمنت الخطبة الوجيزة علاقة الحاكم بالمحكومين، ف جاء إلى الخلافة نتيجة الشورى وانعقاد البيعة، وأنه لا بد من الناس السمع والطاعة مقابل التزامه بالشرعية، وعلى الأمة العون له ومساعدته مادام قائماً على الخير وعلى الأمة تصحيح سياسته إذا انحرف، في المقابل أكد رضي الله عنه - خليفة المسلمين - بإقامة العدل والجهاد في سبيل الله ومقاومة الانحرافات

(١) إسماعيل ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، دار أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ٣٠٥/٦ - ٣٠٦.

العقائدية والسلوكية. فاختيار الخليفة بناء على المعايير الشرعية والإيمانية، دون أي محاباة أو مجاوزات شرعية، يؤكد أن الأمة الواحدة والمجتمع الواحد الذي يسوده أحكام الشريعة في داخله رغبة قوية ملحّة لاستقرار دعائم الإسلام وتبليغ رسالته وشرعه خارج حدوده بما آتاهم الله من قوة.

ومن مظاهر التأسيس لهذا النظام:

• ترسيخ نظام المبايعة:

وهو مطلب شرعي للحديث الصحيح «من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»^(١).

فعندما توفي أبو بكر رضي الله عنه، عهد بالأمر من بعده إلى عمر بن الخطاب وكان الذي كتب العهد عثمان بن عفان، وقرأ على المسلمين فأقروا به وسمعوا وأطاعوا^(٢).

يقول أكرم ضياء العمري: «والشيء المشتهر تاريخياً أن أبا بكر عهد بالخلافة لعمر، وهو مجرد ترشيح يهدف إلى نصيحة الأمة وترشيد أهل الحل والعقد، ولا تتعقد به الخلافة، وإنما تتعقد إذا وافقت الأمة على الترشيح، وبايعت للمرشح، وهذا ما تم لعمر بن الخطاب حيث بايعه المسلمون في المدينة وأخذت له البيعة من أهل البلدان»^(٣).

(١) مسلم ابن الحجاج النيسابوري بشرح النووي، مرجع سابق، في الأمانة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، رقم (١٨٥١)، ٤٨٢/١٢.

(٢) إسماعيل ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ١٨/٧.

(٣) أكرم ضياء العمري، عصر الخلافة الراشدة، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية،

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ص ٥٦.

• ترسيخ مبدأ الشورى:

قال الإمام ابن حجر: «وقد ورد من استشارة الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة منها: مشاورة أبي بكر رضي الله عنه في قتال أهل الردة، وأخرج البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران قال: «كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم، وإن علمه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة، فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلمائهم واستشارهم، وإن عمر كان يفعل ذلك...»، وذكر أن القراء كان أصحاب مجلس عمر ومشاورته...

وقال علي رضي الله عنه: «ما فعل عثمان الذي فعل في المصحف إلا على ملأ منا» وسنده حسن... اهـ^(١).

ومن مقاصد الخلافة، والتي ظهرت جلياً في تطبيقات الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم وكان لها دوراً فعالاً في الاستقرار وإثراء الحركة العلمية:

أ- حفظ الدين وإقامته:

«لما اشتهرت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بالنواحي، ارتدت طوائف كثيرة من العرب عن الإسلام ومنعوا الزكاة، فنهض أبو بكر رضي الله عنه لقتالهم فأشار عليه عمر وغيره أن يفتر عن قتالهم فقال: والله لو منعوني عقلاً أو عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها، فقال عمر:

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري صحيح البخاري، مرجع سابق،

كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله فمن قالها عَصِمَ مِنِّي ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال وقد قال: «إلا بحقها» فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق»^(١).

ب- نشر الدين والدعوة إليه بالقلم واللسان والسنان:

«فالدعاء إلى الدين الحق مسلكان؛ أحدهما الحجة وإيضاح المحجة والثاني: الاقتهار بغرار السيوف، وإيراد الجاحدين المجاهرين مناهل الحثوف»^{(٢)(*)}.

ج- دفع الشبه والبدع والأباطيل:

«كان صبيغ يسأل عن متشابه القرآن فضربه عمر وقال: احملوه على قتب ثم أخرجوه حتى تقدموا به بلاده ثم ليقهم خطيباً ثم ليقل إن صبيغاً طلب العلم فأخطأه»^(٣).

(١) محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير الأعلام (عهد الخلفاء الراشدين)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ٢٧.

(٢) عبد الملك الجويني، غياث الأمم في التباث الظلم، تحقيق: مصطفى حلمي، فؤاد عبد المنعم، دار الدعوة، الإسكندرية، مصر، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص ١٤٤.

(*) سيأتي في الفصل الثاني عن آثار الخلفاء الراشدين العلمية.

(٣) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م،

وقال ابن وضاح: «سمعت عيسى بن يونس مفتي طرسوسي يقول: أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي صلى الله عليه وسلم، فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون ويصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة»^(١)، وبعث علي رضي الله عنه ابن عباس رضي الله عنهما إلى الخوارج لينظرهم ويردهم عما توهموه من الشبه فرجع بعضهم واستمر بعضهم، ويقال أن علياً رضي الله عنه ذهب إليهم فناظرهم فيما نقموا عليه حتى استرجعهم عما كانوا عليه^(٢).

د- حماية البيضة وتحصين الثغور:

قال الماوردي في تعداد له لمسؤوليات الأمام: «الثالث: حماية البيضة والذب عن الحريم لتتصرف الناس في المعاش وينتشر في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو بمال»^(٣).

وكان عمر أول ما فتح الفتوح ومسح السواد، وأول من حمل الطعام من مصر في بحر آيلة إلى المدينة^(٤)، وأما في عهد عثمان رضي الله عنه فلقد غزا معاوية بن أبي سفيان قبرص بعدما منعه عمر رضي الله عنه فصالحه أهلها على الجزية^(٥).

(١) إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢م، ٣٤٦/١.

(٢) إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ٢٩٠/٧.

(٣) علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباي الحلبي، القاهرة، مصر، ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م، ص ١٦.

(٤) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، (د.ت)، ص ١٣٧.

(٥) المرجع السابق، ص ١٥٥.

هـ- إقامة الشرائع والحدود:

قال قتادة: كان عمر يلبس وهو خليفة جبة من صوف مرفوعة بعضها بأدم ويطوف بالأسواق على عاتقه الدرة يؤدب بها الناس، ويمر بالنكث والنوى فيلتقطه ويلقيه في منازل الناس ينتفعون به»^(١)، وعن صفية بنت أبي عبيد أن رجلاً وقع على جارية بكر فاعترف، فأمر أبو بكر الصديق به فجلد، ثم نفاد إلى فذلك»^(٢).

و- إقامة العدل ورفع الظلم:

عن حميد بن هلال قال: أخبرنا من شهد وفاة أبكر الصديق فلما فرغ عمر من دفنه نفض يده عن غبار قبره ثم قام خطيباً مكانه، فقال: إن الله ابتلاكم بي، وابتلاني بكم، وأبقاني بعد صاحبي، فو الله لا يحضرني شيئاً من أمركم فيليه أحد دوني، ولا يتغيب عني فيألوا فيه عن الجزء والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ولئن أساءوا لنكُلنَّ بهم، قال الرجل: فو الله ما زاد على ذلك حتى فارق الدنيا»^(٣).

ز- جمع الكلمة وعدم الفرقة:

كتب عمر إلى معاوية: احرص على الصلح بين الناس ما لم يستتب القضاء أو كانت بينهم قرابة، فإن فصل القضاء يورث الشنآن»^(٤).

(١) المرجع السابق، ص ١٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٧.

(٣) محمد بن سعد الزهري، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ١٤٦/٣.

(٤) محمد بن أبي بكر بن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ١/١٠٨.

ح - عمارة الأرض - والعناية بالحرمين :-

عن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده، قال: قدمنا مع عمر بن الخطاب في عمرته سنة سبع عشرة فكلمه أهل المياه في الطريق أن يبتتوا منازل فيما بين مكة والمدينة، ولم تكن قبل ذلك، فأذن لهم واشترط عليهم أن ابن السبيل أحق بالماء والظل»^(١).

وقال ابن سعد «واتخذ عمر دار الرقيق وقال بعضهم الدقيق، فجعل الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه يعين به المنقطع به والضيف يتزل بعمر، وضع عمر في طريق السبل ما بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به، ويحمل من ماء إلى ماء، وهدم عمر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وزاد فيه وأدخل دار العباس بن عبد المطلب فيما زاد، ووسعه وبناء لما كثر الناس بالمدينة...»^(٢).

ووسع عمر رضي الله عنه المسجد الحرام واشترى دوراً فهدمها وهدم ما قرب من المسجد حين أبو الناس أن يبيعوا، وأعطاهم أثمان الدور بعد ذلك، ثم أحاط عليه بجدر قصير دون القامة، ورفع المصابيح على الجدر، وجعل الردمين: ردم أجياذ و ردم أعلى مكة»^(٣).

وفي عهد عثمان رضي الله عنه قام بتوسعة المسجد الحرام واشترى من قوم وأبى آخرون أن يبيعوا، فهدم عليهم، فصيحوا به عند البيت، فدعاهم،

(١) أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ٦٤-٦٥.

(٢) محمد بن سعد الزهري، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ١٥٠/٣.

(٣) محمد بن إسحاق الفاكهي، مرجع سابق، ١٥٧/٢-١٥٨.

فقال: إنما أجزأكُم علي حلمي عنكم، فعل هذا عمر بن الخطاب فلم يصيح أحد^(١).

(٢) المتابعة والمحاسبة للولاة على الأمصار:

كان الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم دقيقين المحاسبة والمتابعة على ولايتهم على الأمصار وخاصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث سأل أبا هريرة واليه على البحرين من أين اجتمعت له عشرة آلاف درهم؟ فأجاب أبو هريرة: خيلي تناسلت، وعطائي تلاحق، وسهامي تلاحقت، فأمر بها عمر فقبضت^(٢).

وروي عن طريق سيف عن أبي عثمان وأبي الحارث والربيع أبي المجالد، قالوا: لم رجع خالد ومعه أموال جزيلة من الصائفة انتجعه الناس يبتغون رفده ونائله، فكان ممن دخل عليه الأشعث بن قيس فأجازه بعشرة آلاف فلما بلغ ذلك عمر كتب إلى أبي عبيدة بأمره أن يقيم خالدًا ويكشف عمامته وينتزع عنه قلنسوته ويقبده بعمامته ويسأله عن هذه العشرة، إن كان أجازها الأشعث من ماله فهو سرف، وإن كان من ماله الصائفة فهي خيانة ثم أعزله عن عمله...»^(٣).

فبعد الفتوحات وزيادة الثروات كان للخلفاء موقفاً لمحاسبة الولاة لما في ذلك من تحقيق المصلحة العامة من الضبط والتدقيق في أموال المسلمين والمحافظة عليها، فالرقابة المالية والإدارية والصرامة في تطبيقها، لا يعني

(١) المرجع السابق، ١٥٨/٢.

(٢) محمد بن سعد الزهري، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٤٨٥/٤.

(٣) إسماعيل ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ٨٢/٧.

الشك في أمانة الولاية، وإنما زيادة في التثبيت والضبط، حتى لا تضعف النفوس ويختل الأمن الاقتصادي لدولة الإسلام.

(٢) تأسيس نظام إحصائي؛

كان عمر رضي الله عنه أول من اتخذ بيت المال، وأول من اتخذ الديوان^(١)، حيث أفادت الدواوين في معرفة الإحصاء ومعرفة الإنسان والأنساب، وقد روى ابن سعد في ترجمة النعمان من مالك بن ثعلبة بن وعَد الخرزجي من أن جده يسمى قَوَئِل فسموا القَوَاقِلَة، فقال: «وكذلك هم في الديوان يدعون بني قوئل»^(٢)، وروي عن هشام الكعبى: «رأيت عمر بن الخطاب يحمل ديوان خزاعة حتى يتزل فنأثيه بقديد فلا يغيب عنه امرأة بكر ولا ثيب فيعطيهن في أيديهن ثم يروح فيتزل عسغان فيفعل مثل ذلك حتى توفي»^(٣)، «وكان ديوان حمير على عهد عمر على حده»^(٤).

(٤) الفتوحات؛

سقطت دولة فارس وانضم معظم بلاد دولة الروم إلى دولة الإسلام، ولكن ما أثر هذه الفتوحات على الحركة العلمية؟؟

وهذا ما سيتضح من خلال الأسطر التالية:

• زيادة موارد البلاد من الأموال وكثر الخراج^(٥):

ومثال ما كان في عهد عمر - رضي الله عنه - عندما استشار

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص ١٣٧.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٢٨١/٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٣٨-٤٣٩.

(٤) أحمد بن يحيى البلاذري، مرجع سابق، ص ٤٣٨-٤٣٩.

(٥) سيتم إيضاح ذلك في العامل الاقتصادي.

المسلمين في تدوين السديوان فأشار عليه عثمان رضي الله عنه: أرى مالا كثيرا يسع الناس وإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن يلتبس الأمر، وقال له الوليد بن هشام بن مغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجند جنودا، فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم وكانوا من نساب قريش فقال: أكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا...»^(١).

ومما يشير إليه هذا الموقف إضافة إلى زيادة موارد البلاد أن الفتوحات كان لها الأثر في الاستفادة مما عند الحضارات الأمم الأخرى، من تدوين الدواوين وغيرها ومن جانب ثالث كان لها أثر في الحركة العلمية من تشجيع أمر الكتابة، والاهتمام بها كما سيتبين في المباحث القادمة، حيث أصبحت الكتابة هي وسيلة الاتصال بين الخليفة والولاة.

«كتب عمر إلى حذيفة أن أعط الناس أعطيتهم وأرزاقهم فكتب إليه: إنا قد فعلنا وقد بقي شيء كثير، فكتب إليه عمر، إنه فيؤهم الذي أفاء الله عليهم...»^(٢).

• الاستفادة من الموالي والرفيق في ميادين العلم:

لما فتح خالد بن الوليد عين التمر في سنة ١٢ هـ «وجد في بيعتها أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل، عليهم باب مغلق، فكسره عنهم وقال: ما أنتم؟ قالوا:

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٤.

رهن فقسمهم في أهل البلاد، ومنهم زياد مولى ثقيف وسيرين أبو محمد بن سيرين، وحرمان مولى عثمان»^(١).

ولما قدم عمرو بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين وقد استخلف على جندها زكريا بن الأجهم العبدي وعلى خراجها مجاهد بن جبر مولى نوفل بن عبد مناف، فسأله عمر: من استخلفت؟ فذكر له: مجاهد بن جبر، فقال: له عمر: مولى ابنة غزوان؟ قال: نعم، إنه كاتب، فقال عمر: إن القلم ليرفع صاحبه^(٢).

• انتشار الكتابة:

من خلال تأسيس الدواوين، وأصبحت المعاملات الرسمية بين الخليفة وولاته لا تتم إلا بالكتابة، ومن ذلك مثلاً:

أ- كتابة الإقطاع^(*):

وقد سن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الأمر، حيث أقطع الدارين أرضاً، قال تميم الداري للنبي صلى الله عليه وسلم: لنا جيرة من الروم لهم قريتان يقال لأحدهما جبرى والأخرى بيت عينون، فإن فتح الله عليك

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، روائع التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ت)، ٣/٣٧٧.

(٢) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي، كتاب فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: محمد الحجي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(*) الإقطاع: تسويغ الإمام من مال الله لمن يراه أهلاً لذلك «أنظر: علي بن محمد بن سعود الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، تحقيق: إحسان عباس، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ص ١٨١-١٨٢.

الشام فهبهما لي، قال: فهما لك، فلما قام أبو بكر أعطاه ذلك وكتب له كتابًا...»^(١).

وفي عهد الخلفاء الراشدين كتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إقطاعًا للأقرع بن حابس وعيينة بن بدر^(٢).

وكتب عمر رضي الله عنه إقطاعًا لأبي عبد الله نافع بن حارث بن كلدة حيث أمر أبو موسى الأشعري بذلك^(٣).

ب - كتابة العهود للعمال والولاة على الأمصار:

فقد كتب أبو بكر رضي الله عنه عهودًا بالإمارة إلى الصحابة رضوان الله عليهم.

«عن أنس أن أبا بكر رضي الله عنه لما استخلف بعثه إلى البحرين، وكتب له هذا الكتاب، وختمه بخاتم النبي صلى الله عليه وسلم»^(٤).

وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري بالبصرة أن يؤمر سهلا بن عدي^(٥). وكتب عثمان بن عفان إلى محمد بن أبي بكر الصديق

(١) محمد بن سعيد الزهري، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ١/١٦٦.

(٢) محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين)، مرجع سابق، ص ٢٨٥.

(٣) محمد بن سعد الزهري، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٧/٣٦.

(٤) أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب فرض الخمس ٦/٢٥٤، رقم (٣١٠٦).

(٥) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، مرجع سابق، ٣/١٦٩.

بإمارته على مصر^(١)، وكتب علي رضي الله عنه الولاية على مصر لقيس بن سعد^(٢) والمكاتبات والكتب في هذا النمط كثيرة مبسطة في كتب التاريخ والتراجم.

ج- كتابة عهود الصلح والأمان:

ومثال ذلك ما كتبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه من كتب أمان لعبيدة بن حصن^(٣)، ومجاعة بن مرارة^(٤)، وقرة بن هبيرة^(٥).

وأما عهود الصلح ما كتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما صالح أهل إيليا (بيت المقدس) وكتب لهم كتاباً^(٦)، وما كتبه خالد بن الوليد للأسقف وأعطاهم الأمان فأجاز أبو عبيدة ذلك^(٧).

(٥) تخصيص كتاب للخلفاء الراشدين:

كان عثمان بن عفان كاتباً لأبي بكر ثم صار خليفة، وكان مروان بن عبد الحكم كاتباً لعثمان بن عفان ثم صار خليفة^(٨)، وكتب لأبي بكر أيضاً زيد

(١) محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام، الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ٤٥٨.

(٢) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، مرجع سابق، ٤/٤٤٢.

(٣) أحمد بن علي العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، مرجع سابق، ٤/٦٤٠.

(٤) المرجع السابق، ٥/٣٣٤.

(٥) المرجع السابق، ٥/٥٧١.

(٦) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ٣/٦٠٨-٦٠٩.

(٧) أحمد بن إسحاق اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، علق عليه ووضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، توزيع مكتبة الباز، مكة المكرمة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ٢/٩٦.

(٨) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ٤/٢٥١.

بن ثابت^(١)، وكتب لعمر بن الخطاب زيد بن ثابت وعبد الله ب أرقم وعبد الله بن خلف الخزاعي، أبو طلحة الطلحات - على ديوان البصرة - وكتب على ديوان الكوفة أبو جبيرة بن الضحاك^(٢).

«وكان يكتب لعلي بن أبي طالب سعيد بن غراب الهمداني، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن حسن، وعبد الله بن أبي رافع، وسماك بن حرب»^(٣).

(٦) مكانة الخلفاء الراشدين:

أ- أعمال وتطبيقات الخلفاء مشروعة.

«قال صلى الله عليه وسلم... عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ»^(٤).

ب- فضل الخلفاء الأربعة على سائر الصحابة.

نقل شيخ الإسلام ابن تيمية اتفاق أهل السنة والجماعة على تفضيل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي فقال: «فهذا متفق عليه بين أئمة المسلمين المشهورين بالإمامة في العلم والدين من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهو مذهب مالك وأهل المدينة، والليث بن سعد، وأهل مصر والأوزاعي، وأهل الشام، وسفيان الثوري وأبي حنيفة، وحامد بن زيد وحامد بن سلمة، وأمثالهم من أهل العراق، وهو مذهب الشافعي وأحمد وإسحاق، وأبي عبيد وغير هؤلاء من الأئمة»^(٥).

(١) المرجع السابق، ٢٤٦/٤.

(٢) المرجع السابق، ٢٤٦/٤.

(٣) المرجع السابق، ٢٤٦/٤.

(٤) محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الصحيح، مرجع سابق، ٤٤/٥، رقم (٢٦٧٦).

(٥) أحمد بن تيمية، الفتاوى، مرجع سابق، ٤٢١/٤.

«وعن قتادة أن أنسًا رضي الله عنه حدثهم فقال: «صعد النبي صلى الله عليه وسلم أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف، فقال: اسكن أحد - أظنه ضربه برجله - فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان»^(١). وجاءت آثار وأحاديث كثيرة مبسوبة في كتب الصحاح والسنن والطبقات عن مناقب الخلفاء الأربعة وحسب الباحث الإشارة إليها^(٢).

ج- كون الخلفاء الراشدين من قريش:

وقد جاء حديث عن وائل بن الأسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفا قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(٣). وقال ابن عمر - رضي الله عنهما - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»^(٤).

ولا شك أن وجود النصوص الشرعية في هذا الجانب تعتبر من العوامل المهمة في استتباب الوضع السياسي، وعدم منافسة القبائل الأخرى في طلب الخلافة، لذا استجابة العرب عن بكرة أبيها للنص الشرعي، وسلمت أمورهم للخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين.

(١) أحمد بن حجر علي العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، ٦٩/٧.

(*) للاستزادة أنظر: الرياض النضرة في مناقب العشرة لأبي جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري، درا الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، وكتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي، مرجع سابق.

(٢) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم شرح النووي، مرجع سابق، ٤١/١٥.

(٣) أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، ١٤٢/١٣-١٤٣.

ثالثاً: العامل الثقافي:

للعامل الثقافي أثر لا يقل عن العوامل السابقة إن لم يكن يماثلها أو قد يفوق عليها، وقد ارتبط هذا العامل بالإرث التاريخي الثقافي إضافة إلى ارتباطه بالعامل الديني من خلال الأهداف والغايات والآداب والممارسات، مما كان له كبير الأثر في الانسجام العقدي والفكري والتربوي والاجتماعي للمجتمع، حتى صار له هوية ثقافية متميزة ومتفوقة عن بقية الأمم والحضارات، ولعل الباحث يبرهن على ذلك من خلال توضيح النقاط التالية:

(١) الإرث الثقافي لمكة وأهلها:

من مكة انطلقت الرسالة المحمدية، وأنزلت الآيات الربانية، وكان أكثر أهلها على معرفة بالكتابة والقراءة والحساب وبأديان الأمم الأخرى فهذا كردوس بن عمر يقرأ الكتب وينقل عن الإنجيل^(١)، وإن أمية بن أبي الصلت نظر الكتب وقرأها في الجاهلية^(٢).

ويذكر ابن عبد ربه أنه عند ظهور الإسلام «ليس أحد يكتب العربية غير سبعة عشر إنساناً»^(٣)، وكان قيس بن نشبة مطلع على كتب وتراجم الروم وفارس وأشعارهم^(٤)، بل هذا الإرث لم يأت من فراغ وإنما كان له أصول فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «عن أول من وضع الكتابة

(١) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإصابة في علم الصحابة، مرجع سابق، ٤٧٦/٥.

(٢) أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، مرجع سابق، ص ٥٤٠.

(٣) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، مرجع سابق، ٢٤٠/٤.

(٤) علي بن محمد بن الجزري ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: محمد بن إبراهيم البنا وآخرون، دار الشعب، القاهرة، مصر، (د.ت)، ٤/٤٤٨-٤٤٩.

العربية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكان أول من نطق بها، فوضعت على لفظه ومنطقه»^(١).

وعن عمرو بن شيبة أن أول من وضع الخط: نفيس، ونصر، وأتيماء، وبنو إسماعيل بن إبراهيم، ووضعوه متصل الحروف بعضها ببعض حتى فرقه نبت وهميسع وقبذر (بنو إسماعيل)^(٢).

وعن سهيل بن محمد عن الأصمعي أو غيره، قال: أول من كتب بالعربية مرار بن مرة من أهل الأنبار، ومن الأنبار انتشرت في الناس، وذكروا أن قريشاً سئلوا: من أين لكم الكتاب؟ قالوا: من أهل الحيرة، وقيل لأهل الحيرة: من أين لكم الكتاب؟ قالوا: من الأنبار، وقال غيره: كان بشر بن عبد الله العبادي علم أبا سفيان بن أمية وأبا قيس بن عبد مناف بن زهرة الكتاب فعلموا أهل مكة^(٣).

في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان المجتمع المكي القرشي به رجال لهم معرفة بالقراءة والكتابة، وفي قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يسدل على ذلك حيث قال لأخته أعطيني هذه الصحيفة التي كنتم تقرأون آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، كان عمر كاتباً...»^(٤)، وعندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية

(١) أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، مرجع سابق، ٢٣٩/٤.

(٢) المرجع السابق، ٢٣٩/٤ - ٢٤٠.

(٣) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف، مرجع سابق، ص ٣٠٧.

(٤) إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،

١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، ٣٥/٢.

الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتاباً...»^(١).

وهكذا نجد أن هذه النصوص وغيرها تدل على أن الإرث النقافي والمعرفي للمجتمع المكي ساهم بدور فعال في انتشار التعليم في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين على أوسع نطاق، فالعلم والتقاليد يمكن نقلها من جيل إلى جيل عن طريق التواصل بين الأجيال، والاتصال بين المجتمعات وإن كان بعض هذه المجتمعات يغلب عليها الأمية.

(٢) حث الشرع المطهر على العلم والتعلم:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

عن قتادة قال: «إن بالعلم لأهله فضلاً، وإن له على أهله حقاً، ولعمري للحق عليك أيها العالم فضل، والله معطي كل ذي فضل فضله»^(٢).

وعن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» رواه البخاري^(٣).

قال الإمام ابن حجر: «مفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين، أي يتعلم قواعد الإسلام، وما يتصل بها من الفروع، فقد حرم الخير...، وفي

(١) المرجع السابق، ٤٢/٢.

(٢) محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ١٩/١٢.

(٣) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، ٢١٦/١.

ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم^(١).

وقال صلى الله عليه وسلم: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورقوا ديناراً ولا درهماً، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر». رواه أبو داود^(٢).

وهكذا نجد أن الإسلام جع للعلم قدسية، وأجرًا عظيمًا في طلبه بل جعل النواميس الكونية تتعامل مع طالب العلم بنوع من المعية والتحفيز والتشجيع.

(٢) تحذير الشرع من كتمان العلم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة» رواه أبو داود^(٣).

(١) المرجع السابق، ٢١٦/١.

(٢) حمد بن محمد الخطابي البستي، معالم السنن شرح أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ١٦٩/٤.

قال الإمام الخطابي في تعليقه على الحديث: «وقيل في قوله وتستغفر له الحيتان في جوف الماء إن الله قد قيض للحيتان وغيرها من أنواع الحيوان بالعلم على السنة العلماء أنواعاً من المنافع والمصالح والإرفاق، فهم الذين بينوا الحكم فيما يحل ويحرم منها، وأرشدوا إلى المصلحة في بابها وأوصوا بالإحسان إليها ونفي الضرر عنها فآلهمها الله الاستغفار للعلماء مجازاة على حسن صنيعهم بها وشفقتهم عليها».

(٣) المرجع السابق، ١٧١/٤.

قال الإمام الخطابي: «وهذا العلم الذي يلزمه تعليمه إياه ويتعين عليه فرضه كمن رأى كافرًا يريد الإسلام يقول علموني ما الإسلام وما الدين؟ وكمن يرى رجلاً حديث العهد بالإسلام لا يحسن الصلاة، وقد حضر وقتها وقد يقول: علموني كيف أصلي، وكم جاء مستفتيًا جاء في الحلال والحرام يقول أفتونني وأرشدوني، فإنه يلزم في مثل هذه الأمور أن لا يمنع الجواب عما سئلوا عنه من العلم، فمن فعل ذلك آثمًا مستحقًا للوعيد والعقوبة وليس كذلك الأمر في نوافل العلم التي لا ضرر للناس إلى معرفتها^(١).

لذلك توعد الله سبحانه وتعالى الذين يكتُمون العلم فقال جل شأنه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

(٤) تلوين العلم وكتابته :

توفرت الإمكانيات المادية لدى الصحابة لكتابة الأحاديث، وكانت هناك كتابة مبكرة للسنة النبوية، ولا يريد الباحث أن يدخل في المسألة الخلافية عن النهي عن كتابة الأحاديث، لكن يبدو أن الأمر استقر إلى جواز كتابة الحديث النبوي وتدوينه، وإنما كان النهي خوفًا من اختلاطه بالقرآن، ومن خلال المبحث يورد الباحث بعض الصور من حرص الصحابة رضوان الله عليهم على الكتابة وتدوين الأحاديث والحث عليه، ومن ذلك:

(١) المرجع السابق، ١٧١/٤.

- قال أنس بن مالك أن أبا بكر كتب له فرائض الصدقة التي سنه الرسول صلى الله عليه وسلم^(١).
- عن عمرو بن أبي سيرة قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: «قيدوا العلم بالكتاب»^(٢).
- عن المنذر بن ثعلبة بن علي رضي الله عنه قال: «من يشتري مني علماً بدرهم» قال: أبو خثيمة يقول: «يشتري صحيفة بدرهم يكتب فيها العلم»^(٣).
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لم يكن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثاً مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص، فإنه كتب ولم أكتب»^(٤).
- عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قلت: يا رسول الله، أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: «نعم، قلت في الرضا والغضب؟ قال: نعم، فأني لا أقول في ذلك إلا حقاً»^(٥).
- وكانت لعلي رضي الله عنه صحيفة يكتب فيها، فعن أبي جحيفة قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن؟ قال: لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة

(١) أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تقييد العلم، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، ١٩٧٤م ص ٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٧-٨٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٠.

(٤) يوسف بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، مرجع سابق، ٢٩٩/١.

(٥) المرجع السابق ٣٠٠/١.

إلا أن يعطي الله عبدًا فهمًا في كتابه، وما في هذه الصحيفة، قلت وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر»^(١).

• عن عبد الله بن أبي رافع قال: كان ابن عباس يأتي أبا رافع فيقول: ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كذا؟ ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كذا؟ ومع ابن عباس ألواح يكتب فيها^(٢).

• وكان أنس يحدث أولاده على كتابة العلم، قال ثمامة بن عبد الله، كان أنس يقول لبنيه: «يا بني قيدوا العلم بالكتاب، حتى نقل عنه أنه كان يقول: «كنا لا نعد علم من لم يكتب علمه علمًا»^(٣).

• وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «علموا صبيانكم الكتابة والسباحة»^(٤).

• وعن معن قال: «أخرج إلي عبدًا لرحمن بن عبد الله بن مسعود كاتبًا، وحلف لي أنه خط أبيه بيده»^(٥).

وهكذا نجد ثقافة كتابة العلم تدوينه كانت سائدة عند صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نجد أن الخلفاء الراشدين قد حثوا على تدوين العلم وكتابته، ولا شك أن هذا له أثر في توريث العلم إلى الأجيال التي أتت من بعدهم وتعلمت على أيديهم.

(١) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤١٧ هـ - ١٩٨٧ م، رقم (٢٨٨٢)، ص ١١١٠/٣.

(٢) أحمد علي الخطيب البغدادي، مرجع سابق، ص ٩١-٩٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٦.

(٤) عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مرجع سابق، ١٧٠/٩.

(٥) يوسف بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، مرجع سابق ٣١١/١.

(٥) علم الخلفاء الراشدين:

صاحب الخلفاء الراشدون الرسول صلى الله عليه وسلم ولازموا فأخذوا عنه العلم وأصبحوا من بعده - صلى الله عليه وسلم - مناراً للعلم يأوي إليها المسلمون، فكانوا رضي الله عنه على رأس الصحابة في الفضل والعلم، كيف لا والرسول صلى الله عليه وسلم حث على الاقتداء والاهتداء بهديهم وسنتهم وجعلها مقارنة لسنته وهديه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ...»^(١)، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا نخير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان رضي الله عنهم، ثم نترك أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم لا نفاضل بينهم»^(٢)، ونقل البيهقي في الاعتقاد عن الشافعي أنه قال: «أجمع الصحابة وأتباعهم على أفضلية أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي»^(٣). وهذه الأفضلية لم تأت من فراغ وإنما أتت عن علم عُرفوا به واشتهروا به.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وقال: إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله، قال فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله عن عبد خير، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أمن الناس علي في صحبته ومالي أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر...»^(٤).

(١) سبق تخريجه، ص.

(٢) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، ٢١/٧.

(٣) المرجع السابق، ٢٢/٧.

(٤) أخرجه البخاري، أنظر فتح الباري، مرجع سابق، ١٦/٧، حديث رقم ٣٦٥٤.

عن معرور بن سويد الأسدي قال: وافقت الموسم مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما انصرفنا إلى المدينة انصرفت معه، فلما صلى صلاة الغداة فقرأ فيها: «ألم تر كيف فعل ربك» و (إيلاف قريش) ثم رأى ناسا يذهبون مذهباً، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ قالوا يأتون مسجداً هاهنا صلى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، يتبعون آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعاً، ومن أدركته الصلاة في شيء من هذه المساجد التي صلى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فليصل وإلا فلا يتعمدها»^(١).

عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال: سمعته يقول: «ما رأيت أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إذا حدث أتم حديثاً ولا أحسن من عثمان بن عفان إلا أنه كان رجلاً يهاب الحديث»^(٢). وعن ابن عون عن محمد قال: «وكان أعلمهم بالمناسك عثمان بن عفان»^(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إذا حدثنا ثقة عن علي بفتيا لا نعدوها»^(٤).

وعن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة: «كان لعلي ما شئت من ضرر قاطع في العلم...، والفقه في السنة»^(٥).

(١) إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام مرجع سابق، ٣٤٦/١.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٣٢/٣.

(٣) المرجع السابق، ٣٤/٣.

(٤) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص ١٧٠.

(٥) المرجع السابق، ص ١٧١.

(٦) حث الخلفاء الراشدين على تعلم العلم:

عن عبد خير عن علي قال: يرحم الله أبا بكر هو أول من جمع اللوحين»^(١).

قال عمر رضي الله عنه: «أيها الناس عليكم بالعلم فإن الله سبحانه وتعالى رداء يحبه فمن طلب باباً من العلم رداه الله بردائه فإن أذنب ذنباً استعته لئلا يسلبه رداءه ذلك حتى يموت به»^(٢).

وعنه رضي الله عنه قال: «أيها الناس تعلموا القرآن {تعرفوا به}، واعملوا به تكون من أهله...» وقال في خطبة أخرى: «...ألا إني إنما أبعث عمالي ليُعلموكم دينكم وسنتكم، ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ويأخذوا أموالكم...»^(٣).

وعن علي بن أبي طالب قال: لم يؤخذ على الجاهل عهد بطلب العلم حتى أخذ على العلماء عهد ببذل العلم للجهال، لأنه كان قبل الجهل»^(٤).

وكان رضي الله عنه ينشد:

أبـوهم آدم والأم حـواء	الناس في جهة التمثيل أكفاء
يفـاخرون به فالطين والماء	فإن يكن لهم من أصلهم حسب
على الهدى لمن استهدى أولاء	فالفضل إلا لأهل العلم إنهم

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ١٠٣/٣.

(٢) محمد بن أبي بكر الدمشقي (ابن القيم الجوزية)، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ١/١٢١.

(٣) محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، مرجع سابق، ١٥٤/٤.

(٤) يوسف بن عبد البر، جامع بيان العلم، مرجع سابق، ٤٩٢/١.

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه وللرجال على الأفعال أسماء^(١)

(٧) جمع القرآن الكريم وتسويته :

جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ستة نفر: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، وسعد وأبو زيد، وكان مجمع بن جارية قد جمع القرآن إلا سورتين أو ثلاث، وكان ابن مسعود قد أخذ بضعة وتسعين سورة وتعلم بقية القرآن من مجمع^(٢) (٥).

ولما جاءت خلافة الصديق، قام بجمع القرآن وأمر زيد بن الحارثة أن يجمع القرآن من اللحاف والعسب وصدور الرجال وذلك بعدما استحر القتل في القراء يوم اليمامة^(٣)، وقال له: أنت شاب عاقل لا نتهمك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنت تكتب الوحي: فتتبع القرآن فاجمعه، وفيه يقول حسان بن ثابت:

فمن للقوافي بعد حسان وابنه ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت^(٤)

وكان للخليفة الراشد عمر بن الخطاب من يكتب له المصحف وهو نافع بن ظريب^(٥)، ووجد رضي الله عنه مع رجل مصحفاً قد كتبه بقلم دقيق فكره

(١) للمرجع السابق، ٢١٨/١.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٤٢٨/٢.

(*) يبدو أن الجمع هو حفظه في السطور والصدور لأنه كان مفرقا.

(٣) إسماعيل ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ٧٤٧/٦.

(٤) أحمد بن عبد ربه، العقد الفريد، مرجع سابق، ٢٤٦/٤.

(٥) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ٤٠٨/٦.

ذلك وضربه وقال: عظموا كتاب الله تعالى، وكان إذا رأى مصحفاً عظيماً سر به^(١).

ومما سبق «نرى أن المصاحف التي كتبها الصحابة وعامة المسلمين قد ازدادت في خلافة عمر رضي الله عنه، وربما كانت تتضمن بعض آثار رخصة الأحرف السبعة التي يسر الله بها على الأمة في قراءة القرآن، مما أظهر الحاجة إلى مصحف يكون إماماً للمسلمين في كافة الأمصار، خاصة بعد أن يبرز الاختلاف في القراءة، وهو ما تم في خلافة عثمان»^(٢).

وفي عهد عثمان جاء حذيفة بن اليمان فقال: لعثمان رضي الله عنهم أجمعين: «يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف فننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»^(٣).

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مراجعة: مصطفى القصاص، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ٢/٤٨٠.

(٢) غانم قدوري الحمد، رسم المصحف: دراسة لغوية وتاريخية، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ١٠٦.

(٣) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح المختصر، مرجع سابق، رقم (٤٧٠٢)، ٤/١٩٠٨، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، وانظر: فتح الباري، مرجع سابق، ٩/١٥، رقم (٤٩٨٦).

قال الإمام ابن حجر: «وإنما كان ذلك - أي المصحف - عند حفصة لأنها كان وصية عمر، فاستمر ما كان عنده عندها حتى طلبه منها من له طلب ذلك»^(١).

وفي رواية أخرى أن عثمان رضي الله عنه قد جمع اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار»^(٢).

ولقد كان من ثمرات جمع القرآن الكريم أن نشطت الحركة العلمية وخاصة في كتابة المصاحف، ويظهر للباحث أنه أصبح لها كتاب متخصصون، فعن أبي حكيم العبدى قال: مر بي علي وأنا أكتب مصحفاً فقال: أجل قلمك، فقضمت من قلمي قضة ثم جعلت أكتب فقال: نعم هكذا نوره كما نوره الله»^(٣).

وكان علياً يكره أن تتخذ المصاحف صغاراً^(٤)، وكان يُقال: أعظموا القرآن يعني المصاحف ولا تتخذوها صغاراً^(٥).

وهكذا نجد أن كتابة المصاحف أصبح لها قيمة علمية، بل تعتبر فن من الفنون التي انتقلت إلى عصر التابعين.

فعن سيف أبو رجاء قال: سألت الحسن عن المصحف أينقط بالعربية؟

(١) أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، ٢١/٩.

(٢) المرجع السابق، ٢٥/٩.

(٣) جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ٤٨٠/٢.

(٤) عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، مرجع سابق، ٣٢٣/٤، كتاب

الصيام، باب ما يكره أن يصنع في المصاحف.

(٥) المرجع السابق، ٣٢٣/٤.

قال: لا بأس، أما بلغك كتاب عمر بن الخطاب؟ كتب: تفقهوا في الدين وأحسنوا عبارة الرؤيا، وتعلموا العربية...»^(١).

(٨) واقعية وذاتية التعلم والتعليم عند الصحابة وكبار التابعين:

سادت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده ثقافة حب التعلم والحرص على طلب العلم، وأقبلوا على العلم إقبال الظمان على الماء البارد وليس في ذلك غرابة لأن الله قد أكرم أهل العلم ورفع مترلتهم، فصاروا ينهلون من العلم بالقدر الذي يطفى ظمأهم، ويشفي غليلهم فجدوا رضوان الله عليهم وتتافسوا في تحصيل المعاني من العلوم المختلفة حتى ظهرت منهم عبقریات ورموز يشار إليها بالبنان وكون كل واحد من هؤلاء الرموز مدرسة عرف بها في ما بعد.

فابن عباس كان يقول «تذاكر العلم بعض ليله أحب إلى من إحيائها»^(٢)، ويقول أيضاً: «كان يبلغني الحديث عن الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فلو أشاء أن أرسل إليه حتى يجئ فيحدثني فعلت، ولكني أهذب إليه، فأقبل على بابه حتى يخرج إلي فيحدثني»^(٣).

وعن أبي العالية قال: «تعلمت الكتاب والقرآن فما شعر بي أهلي، ولا رئي المداد في ثوبي قط»^(٤)، وفي رواية أخرى كنت مملوكاً أخدم أهلي، فتعلمت القرآن ظاهراً والكتابة العربية»^(٥).

(١) المرجع السابق، ٣٢٣/٤-٣٢٤.

(٢) يوسف بن عبد البر، جامع بيان العلو وفضله، مرجع سابق، ١١٧/١.

(٣) المرجع السابق، ٣٩٣/١-٣٩٤.

(٤) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ٢١١/٤.

(٥) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ١١٣/٧.

فالإحساس بالمسؤولية وطلبهم للأجر والثواب ورغبتهم في حصول بركة العلم من العوامل المهمة التي زادت من دافعية السلف الصالح - من الصحابة والتابعين - للتعلم.

وعن ليث بن أبي سليم قال: قلت لطاووس لزممت هذا الغلام، يعني ابن عباس، وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني رأيت سبعين من أصحاب رسول الله إذا تدرؤوا في شيء صاروا إلى ابن عباس»^(١).

وعن سعيد بن جبير قال: «كنت أكتب عند ابن عباس في ألواحي حتى أملاها ثم أكتب في نعلي»^(٢)، وعن طارق عن سعيد بن جبير قال: كنت أسمع من ابن عمر وابن عباس الحديث بالليل فأكتبه في واسطة رجلي حتى أصبح وأنسخه»^(٣).

وعن أمية بن شبل قال: قدم إلينا ابن طاووس فجلس، فقال له إنسان ألا يحدثنا؟ فقال: إن سألتُموني عن شيء ذكرته وإلا فأهدر عليكم»^(٤).

ومن هنا تميزت مدرسة مكة في العلم لأن أصحاب ابن عباس كان لديهم واقعية قوية، وفهماً في العلم ونشره بين الناس وكانوا يتسابقون إلى

(١) المرجع السابق، ٤٣٤/٢-٤٣٥.

(٢) أحمد علي الخطيب البغدادي، تقييد العلم، مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٤) أحمد بن علي الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق:

محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م،

٣٠٩/١، وقال المحقق: {فأهدر عليكم} أي يفيض ببعض ما عنده من الحديث إن لم

يسأله.

العلم كما كان شيخهم ابن عباس رضي الله عنهما فبرزوا كما برز شيخهم،
فعن طاووس عن أبيه كان ابن عباس قد سبق على الناس في العلم كما تسبق
النخل السموق على الودي الصغار^(١).

(٩) مجانية التعلم:

عن عبادة بن الصامت قال: «علمت ناساً من أهل الصفة الكتاب
والقرآن فأهدى إلي رجل منهم قوساً فقلت ليست بمال فأرمي عليها في سبيل
الله، لأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأسأله فأتيته فقلت يا رسول الله
رجل أهدى إلي قوساً ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن وليست بمال فأرمي
عنها في سبيل الله فقال: إن كنت تحب أن تحب أن تطوق طوقاً من نار
فأقبلها^(٢).

فما دام للعلم والتعلم قدسية عظيمة في الإسلام، وجعل طلبه فرضاً، فلا
بد أن يكون للجميع ميسراً لا تعيقه عوائق مادية أو اقتصادية أو اجتماعية..
لذا ساد مبدأ أن التعلم للجميع دون أي أعباء مادية، ولا سيما أن الخلفاء
الراشدين كانوا أحرص الناس على نشره، فكان من هدي عمر بن الخطاب
رضي الله عنه إعطاء من كان يتعلم القرآن ويحفظه حيث كتب إلى بعض

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٤٣٦/٢.

(٢) حمد بن محمد الخطابي، معالم السنن شرح سنن أبي داود، مرجع سابق، ٨٤/٣-٨٥.
«يقول الإمام الخطابي شارحاً الحديث: قال بعض العلماء أخذ الأجرة على تعليم
القرآن له حالات، فإذا كان في المسلمين غيره ممن يقوم به حل له أخذ الأجرة عليه،
لأن فرض ذلك لا يتعين عليه، وإذا كان في حال أو موضع لا يقوم به غيره لم يحل
له أخذ الأجرة، وعلى هذا تأول اختلاف الأخبار فيه» أ.هـ.

عماله: «أن أعط الناس على تعلم القرآن»^(١)، إضافة إلى الأوقاف التي تصرف في وجوه الخير ومنها التعلم وذلك بسبب كثرة المال في العهد الراشدي، وتوسع رقعة دولة الإسلام، وقد ذكر الإمام الشافعي - رحمه الله - بقاء أوقاف الصحابة إلى عصره، فقال: «إن صدقات المهاجرين والأنصار بالمدينة معروفة قائمة - أي مشهودة - لم تتغير ولم تزل إلى زمانه وقال أيضاً: «ولقد حفظنا الصدقات عن عدد كبير من المهاجرين والأنصار، ولقد حكى لي عدد كبير من أولادهم وأهلهم، أنهم لا يزالون يلون صدقاتهم حتى ماتوا، ينقل ذلك العامة منهم عن العامة، لا يختلفون فيه، وإن أكثر ما عندنا بالمدينة ومكة من الصدقات لكما وصفت، لم يزل يتصدق بها المسلمون من السلف - رحمهم الله - يلونها حتى ماتوا وإن نقل الحديث فيها كالتكلف»^(٢).

ومما سبق تبين أن العلم والتعليم وتيسيره للناس بل وتشجيع من طلبه وتفرغ له، كان من أجل اهتمام الصحابة وخاصة الخلفاء الراشدين، لما في ذلك من تحقيق مصالح كبرى وغايات عظيمة.

رابعاً: العوامل الاقتصادية:

تعتبر العوامل الاقتصادية من العوامل التي حصل فيها تطوراً وتغيراً كبيراً في عصر الخلفاء الراشدين، فمع انتشار الفتوحات الإسلامية أصبح لدولة الإسلام روافد متنوعة ومتجددة من الأموال التي تدخل بيت ما المسلمين، وكان ذلك من أسباب تدوين الدواوين، وحصر المصروفات

(١) القاسم بن سلام، الأموال، تحقيق: محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية، بيروت،

لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص ٢٧٥.

(٢) محمد بن إدريس الشافعي، الأم، مطبعة كتاب الشعب، القاهرة، مصر، (د.ت)،

والواردات، وهذه المتغيرات الاقتصادية كان لها أكبر الأثر على الحركة العلمية من خلال ما يأتي من الفبي والغنائم والخراج وغير ذلك، ومن خلال ما يتم إيقافه في سبيل الله، إضافة إلى مصاريف الزكاة المتنوعة، وهذه الطفرة الاقتصادية لم تغير في نفوس الصهب الكرام رضوان الله عليهم أجمعين وإنما زادتهم إنفاقا في سبيل الله وجعلتهم أكثر تفرغا لتعليم الناس أمور دينهم، وسيوضح الباحث في هذا المبحث الموارد الاقتصادية وسياسة الخلفاء الراشدين في صرفها: بصورة موجزة:

(١) الموارد المالية:

١/ الغنائم:

الغنينة: هي ما أفاء الله على المسلمين من أموال المشركين بغلبة وقهر^(١).

وقد توالى الغنائم على بيت مال المسلمين بسبب الفتوحات في المشرق والمغرب، وقد حدد الشرع مصارفها.

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفَقَّى الْجُمُعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

ومن الشواهد في ذلك ما ذكر في ردة أهل عمان ومهرة اليمن أن المسلمين سبوا الذراري وأخذوا الأموال والسوق بحذافيرها، وبعثوا بالخمس إلى الصديق رضي الله عنه مع أحد الأمراء^(٢)، وفي رواية أخرى «فكان من

(١) محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ١٧١/٦.

(٢) إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ٣٣٥/٦.

جملة ما اغتتموا ألفاً نجبية فخمس عكرمة ذلك كله وبعث بخمسه إلى الصديق»^(١).

وفي خلافة عمر رضي الله عنه فقد زادت الغنائم زيادة كبيرة نظراً لاتساع الفتوحات في زمنه، فمثلاً في معركة القادسية «جمعت الأسلاب والأموال فجمع منها شيء لم يجمع قبله ولا بعده مثله»^(٢). ولما فتح سعد جلولاء أصاب المسلمون ثلاثين ألف ألف، وأتي عمر بغنائم من غنائم جلولاء فيها ذهب وفضة، فجعل يقسمها بين الناس^(٣).

وفي خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه توسعت الفتوحات في النصف الأول من خلافته شرقاً وغرباً، فعندما فتحت أفريقيا قسم عبد الله بن أبي السرح ما أفاء الله عليهم على الجند، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان»^(٤).

٢/ الفيء:

وهو مصدر ثان من مصادر الدولة، والفيء: كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بني النضير فإنها لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة..»^(٥).

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ٣٣٥/٦.

(٢) المرجع السابق، ٦٥٦/٣.

(٣) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، مرجع سابق، ١٣/٧-١٤.

(٤) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ٢٥٤/٤.

(٥) إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد إبراهيم البنا وآخرون، درا

الشعب، القاهرة، مصر، ٩٠/٨.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ * مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِبنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٦-٧].

فهذه الآية حكمها عام على جميع البلدان التي تفتح بغير قتال فحكمها حكم أموال بني النضير وقد حدد الله وجوه صرف هذه الأموال^(١)، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا أتاه فيء قسمه عن يوم فأعطى الأهل حظين وأعطى العزب حظاً واحداً^(٢). وقد كان عمر بن الخطاب يرى أن لكل مسلم في الفيء شركاً أو نصيباً وكان يقول: «ما أحد من المسلمين إلا له في هذا المال حق، أعطيه أو منعه»^(٣).

وفي حديث عمر حين دخل عليه العباس وعلي يختصمان فذكر عمر الأموال ثم قرأ هذه الآية ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ... الآية﴾ قال فاستوعبت هذه الآية الناس، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له حق فيها - أو قال حظ - إلا بعض من تملكون من أرقائكم، فإن عشت إن شاء الله ليؤتين كل مسلم حقه - أو قال: حظه - حتى يأتي بسر وحمير لم يعرق فيه جبينه»^(٤).

(١) المرجع السابق، ٩٠/٨.

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام، الأموال، مرجع سابق، ص ٢٥٤، (حظين تشية حظ: وهو النصيب). (لأهل يقال تأهل الرجل: أي صار ذا أهل) المحقق.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٢٥-٢٢٦.

قال أبو عبيد: فهذه آية الفيء، فرأى عمر أن الآية محيطة بالمسلمين، وأنه ليس منهم أحد يخلوا من أن يكون له فيها نصيب، قم اختلف المسلمون بعد ذلك أيضًا^(١).

قال الإمام الخطابي «قال أحمد وإسحاق والفيء والفقير إلا العبيد، وأحتج أحمد في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى العباس من مال البحرين وهي غني، والمشهور عن أبي بكر أنه سوى بين الناس ولم يفضل بالسابقة، وأعطى الأحرار والعبيد، وعن عمر أنه فضل بالسابقة والقدم وأسقط العبيد ثم رد علي بن أبي طالب الأمر إلى التسوية بعد ذلك..»^(٢).

ومما سبق يتبين أن العهد الراشدي يتميز بالنمو الاقتصادي مما كان له أكبر الأثر على الأحوال المعيشية لكل فرد، حيث فرض عمر بن الخطاب للناس حتى لم يدع أحدًا من الناس إلا فرض له حتى بقيت بقية لا عشائر لهم ولا موالى ففر لهم ما بين المائتين وخمسين إلى الثلاثمائة»^(٣).

وقال أيضًا - رضي الله عنه - «والله لأزيدن الناس ما زاد المال، ولأعدن لهم عداً فإن أعياني كثرت، لأحثون لهم حثواً بغير حساب هو مالهم يأخذونه»^(٤).

٣/ الغراج:

وهو أحكام الأرض التي تفتح، قال أبو عبيد: وجدنا الآثار عن رسول

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٦.

(٢) حمد بن سليمان الخطابي، معالم السنن شرح سنن أبي داود، مرجع سابق، ٩/٣.

(٣) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ١٦٢/٣.

(٤) المرجع السابق، ١٦٢/٣.

الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده قد جاءت في افتتاح الأرضين بثلاثة أحكام:

أرض أسلم عليها أهلها فهي لهم ملك أيانهم وهي أرض عشر، لا شيء عليهم فيها غيره^(*)، وأرض أخذت عنوة، فهي التي اختلف فيها المسلمون، فقال بعضهم سبيلها سبيل الغنيمة، فتخمس ونقسم، فيكون أربعة أخماسها خططا بين الذين افتتحوها خاصة، ويكون الخمس الباقي لمن سمى الله تبارك وتعالى، وقال بعضهم: بل حكمها والنظر فيها إلى الإمام: إن رأى أن يجعلها غنيمة، فيخمسها ويقسمها، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فذلك له وإن رأى أن يجعلها فيئا فلا يخمسها ولا يقسمها، ولكن موقوفة على المسلمين عامة ما بقوا، كما صنع عمر، فهذه أحكام الأرض التي تفتح فتحاً، وأما الأرض التي قطعها الإمام إقطاعاً، أو يستخرجها المسلمون بالأحياء، أو يحتجزها بعضهم دون بعض بالحمى، فليست من الفتوح^(١).

وهذا يعني أن الأرض وخراجها في حالة فتح المسلمين عنوة أو بالصلح تكون رافداً و مورداً مهماً لبيت مال المسلمين فعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال عمر رضي الله عنه: «لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها بين أهلها كما قسم النبي صلى الله عليه وسلم خيبر»^(٢)، وروي أن سبب هذا الأثر أنه لما فتحت الشام قام بلال إلى عمر رضي الله عنهم أجمعين فقال: لنقسمها أو لتضاربن عليها بالسيف فكانت مقولته تلك^(٣).

(*) قال محقق كتاب الأموال لأبي عبيد: «يعني ليس عليهم في أرضهم إلا زكاة الخارج منه إلا العشر إذا كانت تسقي بماء السيح أو نصفه إن كانت تسقي بالسقاية، ص ٦٠».

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام، الأموال، مرجع سابق، ص ٦٠-٦١.

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المختصر، مرجع سابق، ٨٢٢/٢، رقم

(٢٢٠٩)، وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ٢٢/٥.

(٣) أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ٢٣/٥.

وقد اتخذ عمر رضي الله عنه حفاظاً على هذا المورد المهم عدة إجراءات احتياطية منها: الرفق مع أهل الخراج خوفاً من المشقة عليهم - وأيضاً - إصلاح الخراج والمحافظة عليه، عن عمرو بن ميمون قال: «جئت وإذا عمر واقف على حذيفة وعثمان بن حنيف فقال: تخافان أن تكون حملتما الأرض ما لا تطيق فقال حذيفة: ولو شئت لأضعفت أرضي وقال عثمان بن حنيف: لقد حملت أرضي أمرا هي له مطيقة، وما فيها كثير فضل، فقال: انظر ما لديكما أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق»^(١).

إضافة إلى نهيه رضي الله عنه عن بيع الأرض الخراج حتى يستفيد منها المسلمون، فعن أبي عياض عن عمر قال: لا تشتروا رقيق أهل الذمة فإنهم أهل خراج، وأراضيهم فلا تتباعوها، ولا يقرن أحدكم بالصغار، بعد إذ نجاه الله منه»^(٢).

٤/ الجزية:

هي الخراج الذي يعطيه أهل الكتاب عن رقابهم، الذي يبذلونه للمسلمين دفاعاً عنهم^(٣)، ويلحق بأهل الكتاب المجوس لفعل النبي صلى الله عليه وسلم

(١) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، مرجع سابق، ٤٣٩/٦.

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام، الأموال، مرجع سابق، ص ٨٣.
قال أبو عبيد: «فقد تتبعت الآثار بالكراهة بشراء أرض الخراج وإنما كرهها الكارهون من جهتين: إحداهما: أنها فيء للمسلمين والأخرى: أن الخراج صغار...».

(٣) محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ٣٤٩/٦.

عندما أخذ من مجوس هجر وهو مذهب الشافعي وأحمد وقال: أبو حنيفة بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل كتاب أو من المشركين^(١).

وكانت أول جزية في عهد الخلفاء الراشدين في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه من نجران حيث حملهم على نحو ما حملهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢)، ثم جاءت أموال الجزية تترى على بيت مال المسلمين في عهد عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، إلا أن عمر رضي الله عنه سطر نوعاً من التقنين لها، فعن نافع عن أسلم مولى عمر أن عمر كتب إلى أمراء الأمصار: أن لا تضربوا الجزية على النساء ولا على الصبيان وأن تضربوا الجزية على من جرت عليه موسى من الرجال، وأن يختموا في أعناقهم، ويجزوا نواصبيهم من اتخذ منهم شعراً...، وقال عبد الله في حديث نافع عن أسلم: فضرب عمر الجزية على من كان بالشام مسنهم أربعة دنانير على كل رجل، ومدّين من طعام، وقسطين أو ثلاثة من زيت، وضرب على من كان بمصر أربعة دنانير وإردبين من طعام، وشيئاً ذكره وضرب على من كان في العراق أربعين درهماً وخمسة عشر قفيزاً وشيئاً لا أحفظه، وضرب عليهم مع ذلك ضيافة من مر عليهم من المسلمين ثلاثة أيام وضرب عليهم ثياباً وشيئاً آخر لا أحفظه^(٣).

والناظر في الآثار الواردة في المصنفات والتاريخ ليرى عجباً من عظم الموارد المالية التي جاءت إلى الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت وأنها لم تغير في نفوسهم شيئاً وإنما استثمرت في البناء والتعمير والإصلاح والتعليم والتأليف.

(١) إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ٧٥/٤.

(٢) أبو الحسن البلاذري، فتوح البلدان، مرجع سابق، ص ٧٧.

(٣) عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، مرجع سابق، ٨٥/٦-٨٦.

٥/ الزكاة:

فرض الله عز وجل الزكاة على الأغنياء، وكانت الدولة المسلمة الناشئة تقوم بجباية الزكاة، وفي عهد أبي بكر عندما ارتدت قبائل العرب ومنعوا زكاة أموالهم، قام رضي الله عنه بمقاتلتهم «وقال: والله لم منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها»^(١)، وقد بوب البخاري: باب البيعة على إيتاء الزكاة، عن إسماعيل بن قيس قال: «قال جرير بن عبد الله: بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»^(٢)، وتعتبر الزكاة ضرباً من التكافل الاجتماعي، ومقوماً مهماً من مقومات الدولة المسلمة، لذلك قال الإمام مالك: «الأمر عندنا أن كل من منع فريضة من فرائض الله، فلم يستطع المسلمون أخذها منه، كان حقاً عليهم جهاده حتى يأخذوه منه»^(٣)، وكان أبو بكر وعمر يرسلون إلى الولاة أن يقدموا بجباية الزكاة، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «جاء هلال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشور نخل له وكان سألته أن يحمي له واد يقال له سلبه، فحمى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الوادي، فلما ولي عمر بن الخطاب كتب سفيان بن وهب إلى عمر

(١) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المختصر، مرجع سابق، ٥٠٧/٢، رقم

(١٣٣٥)، وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ٣٣٧/٣.

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري، مرجع سابق، ٣١/١، رقم (٥٧)، وانظر: فتح الباري،

مرجع سابق، ٤٠٨/٣.

(٣) مالك بن أنس، الموطأ برواية أبي مصعب الزهري المدني، تحقيق: بشار عواد

معروف ومحمود محمد خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٣هـ —

١٩٩٣م، ٢٧٧/١.

بن الخطاب ليسأله، فكتب عمر: أن أدي إليك ما كان يؤدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر نخله فاحم له سلبه ذلك وإلا فلا فإنما هو ذباب غيث يأكله من شاء»^(١).

وبعد مقتل عثمان رضي الله عنه أصبحت الزكاة تؤدي من قبل الناس وليس شرطاً تسليمها للوالي، عن ابن سيرين قال: «كانت الصدقة ترفع أو قال تدفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمر به، وإلى أبي بكر أو من أمر به، وإلى عمر أو من أمر به، وإلى عثمان أو من أمر به، فلما قتل عثمان اختلفوا، فكان منهم من يدفعها إليهم، ومنهم من يقسمها، وكان ممن يدفعها إليهم ابن عمر»^(٢).

٦/ عشر التجارة:

من موارد بيت مال المسلمين والتي فرضها عمر رضي الله عنه حيث قال لزياد بن جدير عامله على العشر: «أمرني أن آخذ من تجار المسلمين ربع العشر»، وفي رواية أخرى «أمرني عمر أن آخذ من تجار أهل الذمة مثل ما آخذ من تجار المسلمين»^(٣)، وكان عمر رضي الله عنه يأخذ من النبط من الحنطة والزبيب، نصف العشر، يريد أن يكثر الحمل إلى المدينة، ويأخذ من القطنية العشر، وسئل ابن شهاب على أي وجه أخذ عمر بن الخطاب من النبط العشر؟ فقال كان يؤخذ منهم في الجاهلية، فألزمهم ذلك عمر بن

(١) أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي الكبرى، تحقيق: عبد القادر سليمان البنداري، سيد كسوري حسين، درا الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، رقم (٢٢٧٨)، ٢/٢٤.

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام، الأموال، مرجع سابق، ص ٥٦٢-٥٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٣٠.

عمر بن الخطاب^(١)، وأما الرواية التي تصف على ربع العشر من المسلمين، فالمقصود منها الزكاة في أموالهم وهي تختلف عن عشور تجارة الذميين.

٧/الأوقاف:

أوقف النبي صلى الله عليه وسلم أول وقف في الإسلام وهو تأسيس مسجد قباء وذلك عند وصوله إلى المدينة قادماً من مكة، وأوقف عليه الصلاة والسلام وفقاً لرجل يهودي اسمه مخيريق عندما قتل يوم أحد، وقال عليه الصلاة والسلام: مخيريق خير يهود، وكان له سبعة حوائط فتصدق بها صلى الله عليه وسلم عنه^(٢)، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «أن عمر بن الخطاب أصاب أرضاً بخيبر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم يستأمر فيها، فقال: يا رسول الله أني أصبت أرضاً بخيبر، ولم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمر به؟ قال: إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها، قال: فتصدق بها عمر: أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث، وتصدق بها في فقراء وفي القربى، وفي الرقاب، وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منا بالمعروف ويطعم غير متمول»^(٣).

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتنافسون في عمل الخير، والقربة

(١) مالك بن أنس، الموطأ، مرجع سابق، ٢٨٨/١-٢٨٩.

(٢) إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ٤١٦/٥-٤١٧.

(٣) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المختصر، مرجع سابق، ٩٨٢/٢، رقم

(٢٥٨٦)، وانظر: فتح الباري، مرجع سابق، ٤٣٥/٥، رقم (٢٧٣٧)، قال الإمام ابن

حجر: «وحديث عمر هذا أصل في مشروعية الوقف».

من الله سبحانه وتعالى، فعن جابر رضي الله عنه أنه قال: «ما من أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذو مقدرة إلا وقف»^(١).

قال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي: «وتصدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه بداره بمكة على ولده فهي إلى اليوم، وتصدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه بربعه عند المروة وبالثنية على ولده فهي إلى اليوم، وتصدق علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأرضه بينبع فهي إلى اليوم، وتصدق الزبير بن العوام رضي الله عنه بداره بمكة في الخرامية وداره بمصر وأمواله بالمدينة على ولده فذلك إلى اليوم، وتصدق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بداره بالمدينة وداره بمصر على ولده فذلك إلى اليوم، وعثمان بن عفان رضي الله عنه برومة فهي إلى اليوم، وعمر بن العاص رضي الله عنه بالوهط من الطائف وداره بمكة على ولده فذلك إلى اليوم، وحكيم بن حزام رضي الله عنه بداره بمكة والمدينة على ولده فذلك إلى اليوم، قال وما لا يحضرني ذكره كثير يجزئ منه أقل مما ذكرت قال وفيما ذكرت، من صدقات من تنق بداره بمكة حجة لأهل مكة في ملك بيوتها وكراء منازلها، لأنه لا يعمد أبو بكر وعمر والزبير وعثمان وعمر بن العاص وحكيم بن حزام رضي الله عنهم إلى شيء الناس فيه شرع سواء فيتصدقون به على أولادهم دون مالكيه معهم»^(٢).

وهكذا فعندما كثرت الأموال والأعطيات، وفتحت الأمصار وجاءت

(١) محمد ناصر الدين الألباني، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، رقم (١٥٨١)، ٢٩/٦.

(٢) أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة الباز، مكة المكرمة، السعودية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ١٦١/٦، رقم (١١٦٨٠).

الموارد إلى بيت المال نشط الوقف في العهد الراشدي، فأصبح نواة لما بعده من عهد.

(ب) ما يخلص مكة من العامل الاقتصادي:

تتمتع مكة بمكانة بق بيانها إضافة إلى وجود الحج والعمرة مما كان له أكبر الأثر في تحريك الجانب الاقتصادي، ولقد طرأ على مكة في هذا العهد بعض المتغيرات ومنها:

١ - الحركة العقارية:

وذلك ببيع وشراء بيوت مكة فلقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حق في الشعب، فوهبه لعقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، فلم يزل يبد عقيل حتى باعه ولده من محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف». وكان عمرو بن دينار لا يرى به بأساً، وهو بيع وشراء كراء بيوت مكة، ويقول كيف يكون به بأساً والريع ويباع فيؤكل ثمنه، وقد ابتاع عمر بن الخطاب رضي الله عنه دار السجن بأربعة آلاف وأعرب فيها أربعمئة درهم^(١).

وهذا الأمر جعل الناس يقبلون على شراء بيوت مكة والإفادة منها مما كان له الأثر في الزيادة السكانية والحركة العلمية.

٢ - الأسواق التجارية:

كان لتجار مكة أثر في الحياة التجارية، ومن هؤلاء المسور بن مخزومة القرشي، الذي كان يتاجر في سوق ذي المجاز وعكاظ^(٢)، وقد احتكر طعاماً

(١) محمد بن إسحاق الفاكهي، أخبار مكة، مرجع سابق، ٢٦٢/٣.

(٢) محمد بن سعد الزهري، الطبقات الكبرى، (الطبقة الخامسة من الصحابة) تحقيق:

محمد بن صامل السلمي، مكتبة الصديق، الطائف، (السعودية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م،

ذات يوم عندما رأى سحابًا من سحاب الخريف فكرهه، فلما أصبح أتى السوق فقال: من جاعني وليته. فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأتاه السوق، فقال: أجننت يا مسور؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكني رأيت سحابًا من سحاب الخريف فكرهت ما ينفع الناس، فكرهت أن أربح فيه، وأردت أن لا أربح فيه، فقال جزاك الله خيرًا^(١).

وهذه الأسواق استثمرها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة وخاصة في مواسم الحج والعمرة، حيث تتم الفعاليات التجارية فيها ومن أهمها سوق الحزورة وتقع في دار أم هانئ بنت أبي طالب^(٢)، وسوق الأبطح والذي كان يعرض فيه تجارات الشام وغيرها^(٣)، وكان حكيم بن حزام تأتيه العير تحمل الحنطة من الشام فيقبلها الشعب^(٤).

وفي العهد الراشدي نشأت بمكة أسواق لتجارات الحرف، وأصبح كل أهل تجارة أو حرفة لهم سوقهم الخاص مثل دار سمرة وهي موضع سوق الغنم، ودار يعلى بن منبه والتي كان فيها العطارون، وكان إلى جانب دار العباس بن محمد الغزالين والصيارفة^(٥)، وغير ذلك من الأسواق

(١) المرجع السابق، ١٤٢/٢.

(٢) الفاكهي/ أخبار مكة، مرجع سابق، ٢٠٦/٤-٢٠٧، وانظر: الأزرق، أخبار مكة، ٢٩٤-٢٩٥.

(٣) تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد الفقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ط ٢، ٤٦٤/٤.

(٤) الفاكهي، مرجع سابق، ٢٦٤/٣.

(٥) محمد بن عبد الله الأزرق، أخبار مكة وما جاء فيها من آثار، تحقيق رشدي ملحس، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ٢٤٤/٢، ٢٤٨، ٢٥٧.

المتخصصة، وهذا الأمر جعل مكة مركزاً تجارياً لا يضاهي مثلاً من المدن، لذلك يعتبر ميزان مكة من الموازين المعيارية التي أوصى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «الميزان على ميزان أهل مكة»^(١)، مما يوضح الحركة التجارية بمكة ونشاطها الفاعل الملموس أثره على أهل مكة وعلى كل من جاورها أو أقام بها أو جاءها معتمراً أو حاجاً. وهذا الأمر له أثره على الحياة العلمية وإثرائها وعمها بصور متعددة سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة.

خامساً: العامل السكاني:

تتمثل التركيبة السكانية لمكة من الآتي:

(أ) القرشيون:

وهم أبناء النضر بن كنانة فهو أبو قريش وولده مالك والصلت، ورجعت قريش إلى مالك بن النضر فهو أبوها كلها وخرج من قريش بني عبد الدار والذين تولوا الحجاية وسدنة البيت، وبني هاشم والذين تولوا السقاية والرفادة، وبني عبد شمس وكانت لهم القيادة، وبني مخزوم حيث شاركوا عبد شمس في القيادة^(٢)، وغيرهم مثل بني عدي بن كعب والتي تتحاكم إليهم قريش وبني تميم والتي كانت تؤدي إليهم الديات والمغرم وقد تولاهما أبو بكر الصديق رضي الله عنه^(٣).

(١) أحمد بن الحسين البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، مرجع سابق، ١٧٠/٤، رقم (٧٥٠٦).

(٢) عبد الله بن مسلم بن قتيبة، مرجع سابق، ص ٤٠-٤٣، وانظر: الزرقعي، مرجع سابق، ١١١/١-١١٥، والفاكهي، مرجع سابق، ١٩٩/٥.

(٣) الفاكهي مرجع سابق، ١٩٩/٥.

إلا أن أكثر القرشيين عند فتح مكة وفي العصر الراشدي قد انطلقوا وانتقلوا في الأمصار أثناء الفتح الإسلامي، قال الإمام أبو حاتم رحمه الله «ومن مشاهير الصحابة بمكة الذين كانوا قد استوطنوها وإن كانت الأسفار والغزوات والتجارات دفعتهم إلى الخروج منها سواء أدركتهم المنية بها أو بغيرها بعد أن كانوا قاطنين لها رضوان الله عليهم...»^(١).

وهذا يوضح أن العرب كانت انتماءاتهم إلى قبائلهم فلما جاء الإسلام اختفت لعصبية القبلية وأصبح انتماء الرجل العربي إلى أمته أمة الإسلام، إلا أن هذا لا يعني أن قريشاً تركت برمتها مكة، وإنما أصبح هناك متغيرات في التركيبة السكانية بمكة مما شجع القبائل الأخرى في مشاركة قريش السكني في مكة والامتزاج بأهلها سواء بالمصاهرة أو أي من أسباب الحياة الأخرى.

(ب) الحلفاء:

أصل الحلف: المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعُد والاتفاق^(٢)، وكانت قريش موطن نخوة وشجاعة إضافة إلى وجودها في بلد الله الحرام والتي أكسبها حرمة ومكانة عند القبائل العربية، لذا قامت بعض القبائل بالتحالف مع قريش والاحتماء بها، إضافة إلى بعض الأفراد كان يأوي أفراداً ويجعلهم من ضمن حميته، واستطاع هؤلاء الحلفاء أن يكونوا بيئةً في المجتمع المكي ويعتمدوا على أنفسهم في مسالك الرزق والسكن وقد ذكر

(١) محمد بن حبان البستس، مشاهير علماء الأمصار، تصحيح م/ فلايشهر، وطبعه لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م، القاهرة، مصر، ص ٣٠.

(٢) محمد بن الأثرى الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الارنؤوط، دار الفكر للطباعة والنشر، ط ٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م،

الفاكهي أن بديل بن ورقاء كان له داراً في طرف النثية وهو من حلفاء بني سهم بن عمرو^(١). والناظر إلى من كتب في مكة وريعتها يلاحظ أن معظم الحلفاء سكنوا قرب من حالفوهم من بطون قريش^(٢).

وكان لهؤلاء الحلفاء مكانة أثناء فتح مكة حيث استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم بديل بن ورقاء الخزاعي على سبي هوازن من حنين^(٣)، إلا أن الإسلام نهى عن الحلف لحديث النبي صلى الله عليه وسلم «لا حلف في الإسلام أياً حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة»، قال ابن الأثير «فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام لقوله صلى الله عليه وسلم «لا حلف في الإسلام» وما كان منه في الجاهلية على نصرة المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه فذلك الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم «أياً حلف كان في الجاهلية لم يزد^(٤) الإسلام إلا شدة» يريد من المعاقدة على الخير والنصر للحق وبذلك يجتمع الحديثان وقد حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام بين قريش والأمصار يعني آخى بينهم وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الإسلام والممنوع منه ما خالف حكم الإسلام^(٥).

(١) الفاكهي: مرجع سابق، ٣/٣٤٨.

(٢) للاستزادة: انظر الأزرق، ٢/٢٣٥-٢٣٧، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٤-٢٥٦، ٢٤٦، ٢٧٣، الفاكهي، ٣/٢٧٣، ٣٧٥-٢٧٦، ٢٩٢، ٢٩٦-٢٩٩، ٣٠٣، ٣١٦.

٣١٨، ٣٤٨.

(٣) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٤/٤٦٦.

(٤) رواه مسلم: في فضائل الصحابة رقم (٢٥٣٠) باب مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه، وانظر: مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، ١٦/٣١٥.

(٥) محمد بن الأثير الجزري، جامع الأصول، مرجع سابق، ٦/٥٦٥-٥٦٦.

إذا فقد كان للحلفاء في المجتمع المكي أهمية، وتكمن أهميتهم بعد القرشيين بعدما تغلغل الإسلام وانتشر وتأسست روابط الأخوة الإسلامية، وذابت الفوارق والطبقية، وأصبح شعار الجميع إن أكرمكم عند الله اتقاكم.

(ج) الموالي والرقيق؛

الموالي هم في الأصل كانوا رقيقاً ثم كسبوا حريتهم بطريق العتق^(١)، والرقيق وهم المملوكون لأسيادهم ويقال رَقَ فلان: أي صار عبداً، وسمي العبيد رقيقاً لأنهم يرقون لمالكهم ويلون ويخضعون^(٢).

وهؤلاء الموالي والرقيق شكلوا في النسبة السكانية بمكة حيزاً لا بأس به وخاصةً بعد فتح الأمصار ودخولها في الإسلام، أقبل كثير من هؤلاء على الإسلام إقبالاً شديداً، واتخذوا من بلد الله الحرام موطناً لهم فتزايد عددهم في العهد الراشدي، وكان لكل خليفة من الخلفاء الراشدين موالٍ، فكان لأبي بكر بلال بن رباح وعامر بن فهيرة وصفية أم محمد بن سيرين وأبو نافع.. وغيرهم، وكان من موالٍ عمر - رضي الله عنه - مالك الدار ومهجع وهني والمبارك بن فضالة، وأما عثمان بن عفان فمن من موالٍه كيسان أبو فروة وابنه عبد الله بن أبي فروة، وخدان بن إبان، ومن موالٍ علي بن أبي طالب يحيى بن أبي كثير الذي يروي عنه الأوزاعي^(٣).

وأما الرقيق فكان أكثرهم من العبيد السود من أصل إفريقي اشترأهم أثرياء مكة للعمل في مختلف الأعمال وخدمتهم، وكان بنو مخزوم من قريش

(١) محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت)، ٢٨٣-٢٨٢/١٥.

(٢) المرجع السابق، ٢٠٥/٦-٢٠٦.

(٣) عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المعارف، مرجع سابق، ١٠٣-١٢٧.

يملكون عددًا كبيرًا من العبيد السود ويستخدمونهم في مختلف الأعمال في الردم^(١).

وقد نبغ الموالى في العلم حتى أن كبار الصحابة كانوا يأخذون العلم عنهم، فقد روى أبو بكر وعمر وعلي وابن مسعود وعبد الله بن عمر عن بلال^(٢)، وكان عمر يقول: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلال»^(٣).

وممن نبغ من الموالى أيضا صهيب بن سنان - مولى عبد الله بن جدعان حيث أوصى عمر رضي الله عنه أن يصلي عليه صهيب، وأن يصلي بجماعة المسلمين ثلاثا حتى يتفق أهل الشورى على من يستخلف^(٤).

وأما الموالى الذي نبغوا في العلم في العصر الراشدي فمنهم طاووس بن كيسان اليماني مولى بحير بن ريسا من أبناء الفرس^(٥) وعكرمة البربري مولى ابن عباس^(٦) وعطاء بن أبي رباح^(٧) وسعيد بن جبير^(٨) ومجاهد بن

(١) علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ٦٥/١.

(٢) علي بن محمد الجزري (ابن الأثير)، مرجع سابق، ٢٤٤/١.

(٣) المرجع السابق، ٢٤٥/١.

(٤) المرجع السابق، ٣٩/٣.

(٥) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني «تهذيب التهذيب»، ضبط ومراجعة صديقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ١٠٠/٤.

(٦) المرجع السابق، ٦٣٠/٥.

(٧) المرجع السابق، ٥٦٧/٥.

(٨) المرجع السابق، ٦٠٣/٣.

جبر^(١) وكان لهؤلاء الموالى أثر كبير في الحركة العلمية في العهد الأموي وهذا يؤكد لدينا أن العامل السكاني له أثر كبير في تنشيط الحركة العلمية وخاصة في ظل خلافة راشدة جعلت للعلم قيمة ورفعت من شأن العلماء وإن كانوا من الموالى^(٢).

سادساً: العامل الاجتماعي:

(أ) المجالس المكية:

اشتهر المجتمع المكي في الجاهلية بنواديه ومجالسه، وعندما فتح النبي صلى الله عليه وسلم، زادت هذه المجالس وتوعدت في موضوعاتها واهتماماتها، وكان يغلب عليها العناية بالعلوم الشرعية من قرآن وحديث وفقه وتفسير ووعظ، على أن هناك مجالس أخرى مختلفة تعني بالشعر والأنساب والقصص وغير ذلك، ومن أمثلة هذه المجالس:

• ما كان منها عند الكعبة:

عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير قال: «بينما حلقة من قریش جلوس في هذا المكان من المسجد، في دبر الكعبة، إذا مر عمرو بن العاص يطوف فقال القوم: هشام بن العاص أفضل في أنفسكم أم أخوه عمرو بن العاص؟ فلما قضى عمرو طوافه جاء إلى الحلقة فقام عليهم فقال: ما قلتم حين رأيتموني؟ فقد علمت أنكم قلتم شيئاً، فقال القوم: ذكرناك وأخاك هشاماً فقلنا هشام أفضل أو عمرو؟ فقال: على الخير سقطتم، سأحدثكم عن ذاك، إنني

(١) المرجع السابق، ٤٨/٨.

(٢) أختار عثمان رضي الله عنه (أفلح) لكتابة المصاحف «وكان من الذين جمعوا

المصاحف في عهده وهو من الموالى» المرجع السابق، ٥٤٨/٦.

شهدت أنا وهشام اليرموك فبات وبت ندعو الله أن يرزقنا الشهادة فلما أصبحنا رزقها وحرمتها، فهل في ذلك ما يبين لكم فصله علي؟»^(١).

وكان بعض المجالس يحضرها الفتيان الصغار وبعضها يتتحنون عنها، إلا أن عمرو بن العاص حث أهل مكة أن يهتموا بالفتيان ويضموهم إليهم في مجالسهم. حين قال لهم: «ملي أراكم قد نحيتم هؤلاء الفتيان عن مجلسكم؟ لا تفعلوا، أسعوا لهم وأذنوهم وحدثوهم وأفهموهم الحديث فإنهم اليوم صغار قوم ويوشكون أن يكونوا كبار قوم، وإنا قد كنا صغار قوم ثم أصبحنا اليوم كبار قوم»^(٢).

وهكذا نجد أن المجالس في نظر الصحابة الكرام كان لها أثر في التكوين العلمي والتربوي والمهاري لدى الناشئة عند انخراطهم ومشاركتهم في المجالس وسماعهم لما يدور فيها من الحديث المتنوع، ويشهد لذلك ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه أنه طاف محمد بن عبد الله بن عمرو مع أبيه عبد الله بن عمرو بن العاص، فلما كان في السابع أخذه بيده إلى دبر الكعبة وذكر له الحديث^(٣).

وكان أبو ذر له مجلس يعظ الناس فيه حيث أسند ظهره إلى الكعبة. فقال: يا أيها الناس هلم أخ ناصح شفيق، قال فاكتفه الناس، ثم قال: أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفراً، أليس كان يأخذ من الزاد ما يصلحه، السفر سفر الآخرة، فتزودوا ما يصلحكم، فقام إليه رجل من أهل الكوفة، فقال: وما الذي

(١) محمد سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٤/٤١٧.

(٢) المرجع السابق، ٤/٤١٧.

(٣) يوسف المزي، تهذيب الكمال، مرجع سابق، ٢٥/٥١٤.

يصلحنا؟ قال: أحجج حجة لعظائم الأمور، وصم يوماً شديداً حره للنشور، وصل ركعتين في سواد الليل لظلمة القبور، وكلمة خير تقولها، وكلمة شر تسكت عنها، وصدقة منك على مسكين لعلك تتجو من يوم عسير، اجعل الدنيا مجلسين: مجلساً في طلب الحلال، ومجلساً في طلب الآخرة. ثم الثالث يضر ولا ينفع، اجعل المال درهمين، درهماً تنفقه على عيالك، ودرهما تقدمه لأخرتك، ثم الثالث يضر ولا ينفع..^(١)

وهكذا نجد أن هذه المجالس لها أثر في الحياة الاجتماعية في مكة من حيث الشعور بالاطمئنان واللجوء إلى الله والتضرع إليه سبحانه وتعالى.

حتى أن مجالس القصص لم تكن لهواً أو ضياعاً وإنما كانت ذا قيمة فكرية وتربوية وإيمانية، فهذا ابن عباس وابن عمر يحرصون على سماعها والجلوس لها^(٢).

(ب) الأمن الاجتماعي:

مما تميزت به مكة كونها بلد الله الحرام ولا يحل لأحد أن يحمل السلاح فيها، لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح»^(٣).

(١) الفاكهي، مرجع سابق، ٣/١٣٤-١٣٥.

(٢) أحمد بن زهير بن حرب، أخبار المكيين، من كتاب التاريخ الكبير لابن أبي خثيمة، تحقيق إسماعيل حسن حسي، دار الوطن، الرياض، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص ٢٤٨-٢٥٣.

(٣) مسلم بن الحاج النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، ٩/١٣٩.

قال الإمام النووي: «هذا الحديث يدل ظاهره على أنه لا يجوز حمل السلاح بمكة مطلقاً»^(١).

وقال الأزرقى: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

عن محمد بن السائب الكلبي قال: «أما مثابة للناس فإن الناس لا يقضون منه وطرا يثوبون إليه كل عام، وأما أمنا فإن الله عز وجل جعله آمنا من دخله كان آمنا، ومن أحدث حدثا في بلد غيره ثم لجأ إليه فهو آمن إذا دخله ولكن أهل مكة لا ينبغي لهم أن يكنوه، ولا يكسوه ولا يؤوه ولا يبايعوه ولا يطعموه، ولا يسقوه، فإذا خرج أقيم عليه الحد، ومن أحدث فيه حدثا أخذ بحدته»^(٢).

وأهل مكة لهم مكانة فهم أهل الله، فعن معاوية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم حين استعمل عتاب بن أسيد رضي الله عنه على مكة قال (هل تدري على من استعملتك؟! استعملتك على أهل الله قال بن جريج وسمعت غيره يقول ذلك!)^(٣).

لذا استطاع أهل مكة أن يكونوا لهم معايير وقيماً اجتماعية، مما جعل المجتمع المكي مجتمعا محافظا وبعيدا عن الفجور والآثام، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بقوم قعود بفناء الكعبة فقال (اتقوا الله، وانظروا ما تفعلون فيها فإنها مسؤولة عنكم، وعن

(١) المرجع السابق، ١٣٩/٩.

(٢) الأزرقى، مرجع سابق، ٢٨٣/١.

(٣) الفاكهي مرجع سابق، ٦٤-٦٥/٣.

أعمالكم فتخبر عنكم، واذكروا أن ساكنها من لا يأكل الدم، ولا يأكل الربا ولا يمشي بالنميمة^(١).

فإذا كان المجتمع بهذه المواصفات فلا شك أن ذلك يحفز على السكنى والإقامة فيه وإن كان بعض السلف كان يتورع من الإقامة بمكة خوفاً من المعصية والإثم لكونهما تعظم وتضاعف وزرها عند الله عز وجل.

(ج) السقاية والوفادة:

اشتهرت قريش بالسقاية لحجاج بيت الله الحرام، وعندما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة دفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب وقال: «أعطيتكم ما تزرأكم ولا تزرؤونها»^(٢)، وقد جاء الإسلام إلى مكة وفي يد حكيم بن حزام الوفادة، وكان يفعل المعروف ويصل الرحم ويحض على البر، وقام ببيع درا الندوة بمائة ألف درهم، فقال له ابن الزبير بعت مكرمة قريش، فقال: ذهبت المكارم إلا التقوى، اشتريت بها داراً في الجنة أشهدكم أنني قد جعلتها في سبيل الله - يعني الدراهم -^(٣). فكان المجتمع المكي يتسابق على الصدقة وعلى السقاية والوفادة، وهذا من الإرث الاجتماعي الذي توارثه الأبناء عن الآباء، فلما جاء الإسلام وحث على الصدقة وإطعام الطعام زادت هذه الخصلة، وأصبحت معلماً وخلقاً يعرف به المجتمع المكي، فعن سعد بن عبادَةَ رضي الله عنه قال: يا رسول الله، إن أم سعد كانت تحب الصدقة أفينفعها أن أتصدق عنها؟ قال صلى الله عليه وسلم نعم وعليك بالماء^(٤). لذا

(١) المرجع السابق ٣٣٣/١.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٣٠٨/٢.

(٣) أحمد بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ٤٠٨/٢.

(٤) الفاكهي مرجع سابق، ٩٧/٣-٩٨.

كان بمكة في فجاجها وشعبها من باب المسجد إلى منى ونواحيها ومسجد التنعيم نحو من مائة سقاية^(١).

وتحقق قوله عليه الصلاة والسلام عندما فتح مكة (ألا إن دماء الجاهلة وغيرها تحت قدمي إلا السقاية والسدانة)^(٢)، فإذا كان المجتمع بهذه الصفات فلا شك أنه يصبح موطناً يتمنى القاصي والداني أن يمكث فيه وينال من بركاته، ويتزود من ينابيع مكارم أخلاقه الفاضلة.

سابعاً: العامل الجغرافي:

تتمتع مكة - شرفها الله تعالى - بموقع جغرافي مميز فريد من نوعه، فهي مركز الأرض وإليها تجبى الثمرات.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبَعِ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

قال ابن عباس أي يجمع إليه ثمرات كل أرض وبلد ويقال جبي الماء في الحوض أي جمع والجابية الحوض العظيم^(٣)، وقال الإمام ابن كثير: أي سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره وكذلك المتاجر والأمتعة..^(٤)

(١) المرجع السابق ٩٧/٣، وانظر محمد بن أحمد الفاسي، مرجع سابق، ٣٣٧/١-٣٣٨.

(٢) ابن الأثير أسد الغابة، مرجع سابق ١٠٢/١ (عند ترجمة الأسود بن ربيعة).

(٣) محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، عمان، الأردن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ١٣/١٩٨.

(٤) إسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ٦/٢٥٧.

ومكة ذو موقع متوسط بين الشام واليمن^(١)، وهذا مما أكسبها أهمية كونها على طريق التجارة فصارت أحد المراكز التجارية الهامة وانطلقت القوافل منها في رحلة الشتاء والصيف.

ومكة مدينة في واد والجبال المشرفة عليها من جميع النواحي محيطة حول الكعبة وبناءها من حجارة سود وبيض أملس وعلوها أحر كثيرة الأجنحة من خشب الساج حارة في الصيف إلا أن ليلها طيب، وقد رفع الله عن أهلها مؤونة الاستدفاء وأراحهم من كلف الاصطلاء وكل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسلفة، وما أرتفع عن الأرض عنه يسمونه المعلاة، وعرضها سعة الوادي والمسجد في ثلثي البلد إلى المسلفة والكعبة في وسط المسجد وليس بمكة ماء حار ومياهاها من السماء وليست لهم آبار يشربون منها وأطيبها ماء زمزم وليس بجميع مكة شجر مثمر إلا شجر البادية^(٢).

وقال بطليموس طولها من جهة المغرب ثمان وسبعون درجة وعرضها ثلاث وعشرون درجة وقيل إحدى وعشرون درجة تحت نقطة السرطان طالعها الثريا بيت حياتها الثور، وهي في الإقليم الثاني وقال قوم سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها وهي في هبطت وبمتلة المكوك، والمكوك عربي أو معرب قد تكلمت به العرب^(٣).

وقال ابن بطوطة: (مكة المعظمة هي مدينة كبيرة، متصلة البنيان، مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال، فلا يرها قاصدها حتى يصل إليها،

(١) شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، مرجع سابق، ١٨/١٨٧.

(٢) المرجع السابق، ٥/٢١٧ باختصار.

(٣) المرجع السابق، ٥/٢١٠.

وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ، والأخشبان جبلان من جبالها جبل أبي قبيس هو من جهة الجنوب فيها، وجبل قعيقعان وهو في الجهة الغربية منها، وفي الشمال منها الجبل الأحمر، ومن جهة أبي قبيس أحياد الأكبر وأحياد الأصغر وهما شعبان، والخندمة هي جبل والمناسك كلها (منى وعرفة ومزدلفة) بشرقي مكة شرفها الله.. ولكمة من الأبواب ثلاث: باب المعلى بأعلاها، وباب الشبيكة من أسفلها ويعرف بباب العمرة وهو إلى جهة الغرب وباب المسلفة وهو من جهة الجنوب^(١).

من خلال ما سبق بيانه يتضح أن مكة تتمتع بحصن آمن من الجبال، ويمكن لأي قافلة أو قبيلة أن تتزل مكة وتتحصن في شعابها بواسطة حراسها.

وأما حدود الحرم فمن طريق المدينة دون التتعيم عند بيوت غفار على ثلاثة أميال، ومن طريق اليمن طرف إضاءة لبن في ثنية لين، على سبعة أميال، ومن طريق جدة منقطع الأعشاش على عشرة أميال، ومن طريق الطائف على طريق عرفة من بطن عرفة على أحد عشر ميلاً، ومن طريق العراق على ثنية خل بالمقطع، على سبعة أميال، ومن طريق الجعرانة في شعب آل عبد الله بن خالد بن أسيد على تسعة أميال^(٢).

فالعامل الجغرافي كما أنه حقق الحماية، فإنه يحقق الدقة وتتبع معالم وحدود الحرم، لما في ذلك من أحكام شرعية متعلقة به، وهذا يجعل القادمين

(١) محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ابن بطوطة)، رحلة ابن بطوطة (المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م، ١٥٧.

(٢) الأزرق، مرجع سابق، ١٣٠/١٣٢.

إلى الحرم المكي يتوخون حدود الحرم حتى يكونوا على دراسة وعلم، وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده على توضيح معالم الحرم ووضعوا لها أعلام حتى لا تضيع، ولتربية الناس على أهمية تعظيم حرمان الله وجعلها ذات قيمة في نفوسهم.

• الفصل الثاني: مؤسسات التعليم في مكة في عهد الخلفاء الراشدين

تمهيد:

كان في مكة عددًا لا بأس به ممن يعرفون القراءة والكتابة، نظرًا لأغراض التجارة ونحوها، ويذكر أيضًا أن عدد القرشيين الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة عند ظهور الإسلام بلغ عددهم سبعة عشر رجلاً - كما سبق بيانه -، وهذا يدل على وجود أماكن لتعلم القراءة والكتابة في مكة قبل ظهور الإسلام^(١).

والقرشيون كانوا على اتصال بالأمم المجاورة، ومن ذلك ما كره الأصمعي: أن قریشاً سئلوا: من أين لكم الكتاب؟ قالوا من أهل الحيرة وقيل لأهل الحيرة من أين لكم الكتاب؟ قالوا: من الأنبار، وقال غيره: كان بشر بن عبد الله العبادي علم أبا سفيان بن أمية وأبا قيس بن عبد مناف بن زهرة الكتاب فمعلمًا أهل مكة^(٢).

ولما جاء الإسلام ارتبطت نشأة التعليم الإسلامي ارتباطاً وثيقاً بظهوره وبدراسة القرآن والسنة النبوية المطهرة، لأنهما أساس المعرفة والتشريع الإسلامي.

(١) أحمد بن يحيى البلاذري، مرجع سابق، ص ٦٦٠-٦٦١.

(٢) سبق توثيقه، ص ٢٩.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم هو المعلم الأول لهذه الأمة حيث كان يعلم أصحابه أمور دينهم ونواهيهم، فكان يجلس حول الكعبة المشرفة ويلتفت حوله الناس يسألونه في أمور الإسلام، فيشرح لهم أمور دينهم ودنياهم وما يتعلق بالعقيدة والعبادات^(١).

وقد سار الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - بالتعليم سيراً حسناً لإيصاله إلى كل أفراد المجتمع الإسلامي، وبما أن مكة المكرمة كانت المركز العلمي الثاني بعد المدينة المنورة في ذلك العصر - عصر الخلفاء الراشدين - فإنه يوجب على الباحث أن يوضح المؤسسات التعليمية القائمة في هذا البلد الحرام ومنها:

أولاً: الكتاتيب في مكة:

من خلال المقدمة السابقة اتضح أن مكة يوجد بها أماكن لتعليم القراءة والكتابة ومن كان له أثر في ذلك ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وقس بن ساعدة الأيادي، وأبو قيس بن صرمة بن أبي أنس^(٢) إضافة إلى أبي سفيان^(٣). فأصبح المجتمع المكي مجتمعاً متعلماً، لذلك كان من الإجراءات التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم لرفع مستوى التعليم بين المسلمين في صدر الإسلام أن جعل فدية الأسير المتعلم من الكفار مقابل فك أسرهم بعد غزوة بدر، هو أن يقوم بتعليم عشرة من المسلمين الأميين القراءة والكتابة^(٤).

(١) أنظر: إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، مرجع سابق، ١/٤٥٥-٤٦٥.

(٢) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف، مرجع سابق، ص ٣٥-٣٧.

(٣) أنظر الأثر السابق (تمهيد الفصل الثاني).

(٤) محمد بن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ط ٢، دار

الجيل، بيروت، لبنان، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ١/٢٨٦-٢٨٧.

وفي عصر الخلفاء الراشدين، كانت الحاجة ملحة لانتشار الكتاتيب، وذلك لأن الدولة المسلمة ترامت أطرافها وكثرة ولاياتها وازداد عدد الناس مما جعل للتعليم والكتابة والقراءة أهمية قصوى.

يقول الشيخ عبد الحي الكتاني: «أن الصحابة كانوا قبل ولاية عمر، إنما يُقرئ الرجل ابنته وأخاه الصغير ويأخذ الكبير عن الكبير مفاهمة لسيلان أذهانهم، فلما كثرت الفتوحات وأسلمت الأعاجم، وأهل البوادي، وكثر الولدان، أمر عمر ببناء بيوت المكاتب ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم»^(١). ويؤيده ما رواه الوضين بن عطاء أنه قال: «ثلاثة معلمين كانوا بالمدينة يعلمون الصبيان، وكان عمر بن الخطاب يرزق كل واحد منهم خمسة عشر درهما كل شهر»^(٢).

وقد نظم الأعرابي الذي أسلمه عمر رضي الله عنه للكتاب ليتعلم فيه فقال:

أتيت مهاجرين فعلموني	ثلاثة أسطر متتابعات
كتاب الله في رق صحيح	وآيات القرآن مفصلات
وخطوا لي أبا جاد وقالوا:	تعلم سَقَفَصًا وقُرِيشات ^(٣)

(١) عبد الحي الكتاني، نظام الحكومات النبوية المسمى التراتيب الإدارية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (د.ت) ٢٩٣/٢ - ٢٩٤.

(٢) علي بن الحسن بن هبة الله (بن عساكر)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وأرديها وأهلها، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ٣٥/٢٤.

(٣) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ٢٤/٣.

وكان من ثقافة المجتمع نشر التعليم من خلال الكتاتيب فلقد أقدم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، إلى المدينة رجلاً نصرانياً أسمه جفينة من أهل الحيرة ظنراً له للملح الذي بينه وبينهم، وليعلم بالمدينة الكتابة^(١)، وفي رواية «ليعلم ولده والناس الكتاب والحساب»^(٢).

وكثرة الكتاتيب في العهد الراشدي ومما يدل على ذلك ما رواه أبو العالية عن نفسه قائلاً: «تعلمت الكتابة والقرآن فما شعر بي أهلي، ولا رأي المداد في ثوبي قط»^(٣). ويقول أيضاً في رواية أخرى: «كنت مملوكاً أخدم أهلي فتعلمت القرآن ظاهراً والكتابة العربية»^(٤)، وما رواه ابن أبي ذئب عن عثمان بن عبيد الله قال: «رأيت أبا أسيد يصفر لحيته ونحن في الكتاب»^(٥). وفي رواية «رأيت أبا أسيد وأبا هريرة وأبا قتادة وابن عمر يمرون بنا ونحن في الكتاب فنجد منهم ريح العبير وهو الخلوف، ويصفرون به لحاهم»^(٦).

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ١٩٠/٣، والظنر: يقال: طأرنى فلان على أمر كذا وكذا وأطأرنى وظأرنى على فاعلنى أي: عطفنى، قال أبو عبيد: من أمثالهم في الإعطار من الخوف قولهم: الطعن يظأر، أي يعطف على الصلح، ابن منظور، لسان العرب، ١٧٩/٩.

(٢) محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلمين، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطري، درا الكتب الشرقية، تونس، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، ص ٨٣.

(٣) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ٢١٠/٤.

(٤) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٥٧/٧.

(٥) المرجع السابق، (٢٨٦/٣).

(٦) المرجع السابق (٢٨٦/٣).

وذكر الذهبي أن قبيصة بن ذؤيب كان معلّم كتاب^(١) ثم قال - أي الذهبي -: يعني في بدأ أمره، وهذا يدل أن قبيصة قد مارس هذه المهنة في العهد الراشدي لكونه ولد في عام الفتح سنة ثمان للهجرة.

وكانت هذه المهنة منتشرة وأصبح خروج الصبيان للكتاتيب مظهرًا من مظاهر المجتمع الراشدي بل سمّا مميزًا للصبيان عن غيرهم، فقد وقعت حادثة مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما سمع رجلاً يشبهه.. حيث قال: «يا معشر المسلمين، خذوه، قال: فأخذه فحمل على ظهر رجل كما يُحمل صبيان الكتاب»^(٢).

وتميز العصر الراشدي وخاصة زمن خلافة عمر بن الخطاب بالتنظيم والتخطيط لإنشاء هذه الكتاتيب لتعليم الكتاب والقرآن من خلال تعيين المعلمين ورصد نفقاتهم وتحديد أماكن الكتاتيب إضافة إلى تحديد أيام التعليم.

يقول الشيخ الكتاني «فقد كانوا يسرمدون القراءة في الأسبوع كله، فملا فتح عمر الشام ورجع قافلاً للمدينة تلقاه أهلها ومعهم الصبيان، وكان اليوم الذي لاقوه فيه يوم الأربعاء، فظلوا معه عشية الأربعاء والخميس وصدر يوم الجمعة، فجعل ذلك لصبيان المكاتب، وأوجب لهم سنة للاستراحة»^(٣).

بل إن هناك تحديدًا لبدء الدراسة ومما يؤكد ذلك ما روي عن معن بن

(١) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ٢٨٣/٤.

(٢) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١٦٤/٣.

(٣) عبد الحي الكتاني، نظام الحكومة النبوية، مرجع سابق، ٢٩٤/٢.

عيسى أنه قال: «سمعت أن أول بيت قاله عبد الرحمن بن حسان أن معلم الكتاب استبطأه فقال له: أين كنت؟ وأمر به أن يضرب فبكى وقال: الله يعلم أنني كنت مشغلاً... في دار حمران اصطاد العياصيب»^(١).

وهكذا نجد أن الكتاتيب ظلت آخذة في الانتشار والازدياد حتى أصبحت واحدة من المؤسسات التعليمية المتعارف عليها في ذلك الزمان إلى العصر الحاضر.

الكتاتيب في مكة:

تبين لنا فيما سبق أن مكة بها كتاتيب في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام ولا زالت هذه الكتاتيب تأخذ أشكالاً وأنواعاً مختلفة إلى أن فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة في السنة الثامنة من الهجرة عند ذلك بدأت الكتاتيب تأخذ طابع التعليم الإسلامي.

ومن أشهر الدور التي بها كتاب دار عتاب بن أسيد والذي ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم أميراً على مكة، ويقال لها: دار القسري في الزقاق، وكان على بابها كتاب أبي عثمان^(٢)، وكتاب أبي عمر المعلم^(٣).

وقد نشأ عطاء بن أبي رباح بمكة، وعلم الكتاب بها، ثم أصبح معلم كتاب في مقتبل عمره^(٤).

(١) ابن عساکر، تاریخ مدينة دمشق، مرجع سابق، ٢٩٤/٣٤.

(٢) محمد بن إسحاق الفاكهي، أخبار مكة، مرجع سابق، ٢٧٩/٣.

(٣) محمد بن عبد الله الأزرق، أخبار مكة، مرجع سابق، ٢٤٢/٢.

(٤) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ٨١/٥، وأنظر إلى عبد الله

بن مسلم بن قتيبة، المعارف، مرجع سابق، ٣١٨/٢.

وإذا كانت الأمصار قد نالت حظاً من الاهتمام بإنشاء الكتاتيب، فإن مكة تعتبر من أوائل البلدان التي تأسست بها الكتاتيب، بل هي قبل المدينة في هذا الشأن، ومما يدل على ذلك أن معظم كتّاب الوحي من القرشيين، فلا يعقل أن هؤلاء تعلموا الكتابة والقراءة إلا من خلال الكتّاب، وإن كانت تسمى بغير ذلك الاسم، إلا أن الآليات والممارسات أثمرت مجموعة من الكتّاب المهرة.

ثانياً: المساجد - المسجد الحرام -:

ومن أعظمها المسجد الحرام، ولقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم به عندما فتح مكة يقول ابن سعد: «أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر عمر بن الخطاب زمن الفتح وهو بالبطحاء أن يأتي الكعبة فيمحوا كل صورة فيها، ولم يدخلها النبي صلى الله عليه وسلم حتى محيت كل صورة فيها...»^(١).

وبعد ذلك أقام النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفتح مدة من الزمن ثم عام إلى المدينة بعد أن وليّ عتاب بن أسيد أميراً عليها وأمر معاذ بن جبل أن يقوم بتعليم الناس الإسلام وقواعده وأحكامه^(٢). وكان معاذ رضي الله عنه متخصصاً و ماهراً في تعليم الناس أصول الدين، وهو الرجل الذي أتقن التعليم والتدريس وتوضيح الحلال والحرام، كيف لا وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيه: «أعلمهم بالحلال والحرام معاذ...»^(٣).

ولما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم اهتم الخلفاء الراشدين بالمسجد

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٣١٨/٢.

(٢) المرجع السابق، ٣١٨/٢.

(٣) محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن الترمذي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م، ٢٢٧/٣.

الحرام، لما كان لهذا الاهتمام أكبر الأثر في إقبال الناس زرافات ووحداناً وكثرت أعدادهم.

ما جعل عمر وعثمان رضي الله عنهم يقوموا بتوسعته^(١)، وبنوا حوله أروقة يظل المصلون بها في أثناء صلاتهم، وخاصة في أوقات الظهيرة، واستمر المسجد في عهد الخليفة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كما كان عليه في عهد من سبقه، فلم يزد في مساحته.

وكانت التوسعة التي قام بها الخلفاء لها أكبر الأثر في تهيئة أجواء مجالس العلم وحلقاته مما جعل المسجد الحرام من أجل مؤسسات التعليم الإسلامية وأشهرها في مجال العلم والمعرفة، خصوصاً بعدما أحدث الإسلام تغييراً في أذهان أهل مكة واهتماماتهم، حيث دأب المكيون يعقدون المجالس والحلقات في المسجد الحرام للتعليم والتعلم، مستثمرين موسم الحج ووجود صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: المجالس والعلاقات العلمية والتعليمية:

كانت قريش مشهورة بالأندية والمجالس، وقد نزل قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْذِرْ نَادِيَهُ﴾ وكان سبب نزول هذه الآية أن أبا جهل قال: يا محمد، ألم أنك عن هذا؟.. ثم قال أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً^(٢). وعند ظهور الإسلام، كانت تلك الأندية تعقد في فناء الكعبة في الحجر وعند الصفا والمروة وعند دار الندوة وعند زمزم^(٣). وكانت موضوعات هذه المجالس القصص

(١) محمد بن إسحاق الفاكهي، أخبار مكة، مرجع سابق، ١٥٧/٢-١٥٨.

(٢) إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ٤٦٠/٨.

(٣) أنظر: محمد بن إسحاق الفاكهي، أخبار مكة، مرجع سابق، ٣٠٧/٢، محمد بن عبد

الله الأزرق، أخبار مكة، مرجع سابق، ٢٥/٢.

والأخبار والشعر، وعند قيام الدولة الإسلامية في المدينة وقبيل فتح مكة، كانت حديث الساعة في المجالس ما كان بين قريش والنبي صلى الله عليه وسلم^(١).

«وكانت قريش بمكة لأهل كثرة وثروة، وأهل مقال في كل مقام، هم أهل النادي والبلد»^(٢).

ومن أمثلة المجالس التي اشتهرت في قريش:

- مجلس بني مخزوم حيث كان الشاعر عمر بن أبي ربيعة يجلس فيه^(٣).

- مجلس بالسوق التجاري «الحزورة» يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وكان لنا مجلس تجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة عند دار عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم^(٤).

- مجلس فناء دار أم أنمار القارية: وكانت برزة من النساء، وكانت رجال قريش يجلسون بفناء بيتها يتحدثون.

- مجلس سهيل بن عمرو حيث يجلس فيه بالصباح ويسلم على المارة^(٥).

(١) انظر إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ٣/٣٠٧-٣١٤.

(٢) محمد الفاكهي، أخبار مكة، مرجع سابق، ٣/١٦٨.

(٣) الأصبهاني، الأغاني، مرجع سابق، ١/٧٠.

(٤) أحمد بن حنبل، كتاب فضائل الصحابة، تحقيق وضي الله بن محمد عباس، جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة - السعودية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ١/٢٨٣.

(٥) الفاكهي، مرجع سابق، ٣/٣٥٠.

وبعد فتح مكة استمرت مجالس أهل مكة عند الكعبة إلا أنها ارتبطت معظمها ارتباطاً وثيقاً بالعلم والعلماء، وأول هذه المجالس والحلقات التي تكونت أثناء فتح مكة:

- **حلقة معاذ بن جبل:** حيث طلب النبي صلى الله عليه وسلم منه أن يُعلم أهل مكة السنن والفقه في الدين^(١)، ولم تكن حلقة معاذ مقصورة على الفقه وإنما كان فيها تعليم للقرآن كما جاءت الرواية «وخلف معاذاً يقرئهم، ويفقههم»^(٢). وهو ممن أجازة القرآن من أربعة.. وذكر منهم معاذ بن جبل^(٣).

- **حلقة أبو موسى الأشعري:** وهذه الحلقة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتأسيسها، فقد جاءت الرواية أنه عليه الصلاة والسلام أمر معاذاً وأبا موسى الأشعري يعلما الناس القرآن ويفقهانهم في الدين^(٤)، وأبو موسى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد رأيت مزماراً من مزامير آل داود»^(٥). وهكذا احتلت العلوم الشرعية في المجتمع المكي مكاناً رئيساً في أنشطتهم التعليمية والفكرية والتربوية.

(١) محمد سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٣١٨/٢.

(٢) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ٤٤٧/١.

(٣) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المختصر، مرجع سابق رقم (٣٥٩٧)، ١٣٨٥/٣، انظر فتح الباري، مرجع سابق، في فضائل القرآن، رقم (٤٩٩٩)، ٥٨/٩.

(٤) نجم بن فهد - اتحاف الوري بأخبار أم القرى، مرجع سابق، ٥٦٠/١.

(٥) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المختصر، مرجع سابق، ١٩٢٥/٤، رقم (٤٧٦١).

الحلقات والمجالس التعليمية في زمن الخلفاء الراشدين:

لم يكن بين فتح مكة وبين وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فترة طويلة من الزمن. لذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين أسلموا في فتح مكة من الذين شاركوا في الفتوحات الإسلامية وأقاموا في الأمصار التي فتحت.

أما المستقرين منهم فلم يكونوا من فقهاء الصحابة الكبار ولا محدثيهم أو من قرائهم ومفسريهم لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام، فلم يلزم الواحد منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة أو مدة طويلة تؤهله ليحمل صفة الفقيه أو القارئ أو العالم على سبيل العموم.

يقول الإمام الذهبي متحدثاً عن مكة: «كان العلم بها يسيراً في زمن الصحابة، ثم كثر في أواخر عصر الصحابة، وكذلك في أيام التابعين كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير وابن أبي مليكة...»^(١).

فالبداية الحقيقية لحلقات العلم في التفسير والحديث والفقه كانت مرتبطة بعبد الله بن عباس - رضي الله عنه - فعن أبي جبر قال: «إنما فقه أهل مكة حين نزل ابن عباس - رضي الله عنه - بأظهرهم»^(٢).

وكانت إقامة ابن عباس - رضي الله عنهما - بمكة بعد سنة أربعين

(١) محمد بن أحمد الذهبي، نوات الآثار، تحقيق: قاسم علي سعد، دار البشائر الإسلامية،

دمشق، سوريا، ١٤٠٦هـ، ص ١٥٩.

(٢) الفاكهي، أخبار مكة، مرجع سابق، ٣٤٠/٢.

للهجرة، حين كان مع علي رضي الله عنه بالعراق وقد ولاه على البصرة^(١)، فإذا سكن بمكة سنة ٤٠هـ وكانت وفاته سنة ٦٨هـ هذا يعني أن مدة مكثه ٢٨ سنة تقريباً.

وإذا كان الأمر كذلك، فهل يُعقل أنه لم تكن هناك حلقات تعليمية في العصر الراشدي؟ والإجابة على هذا السؤال أن الحلقات والمجالس العلمية كانت قائمة بشكل يسير إلا أنها تنشط وتزداد في موسم الحج، وهذا ما سيوضحه الباحث في الأسطر القادمة:

- حلقة عبد الله بن السائب: وقد أسلم يوم الفتح ولم يزل مقيماً بمكة إلى أن مات^(٢)، وكان متخصصاً في إقراء القرآن. يقول مجاهد: كنا نفخر على الناس بأربعة: بفتحنا وقاصنا ومؤذنا وقارئنا.. وأما قارئنا فعبد الله بن السائب^(٣).

- حلقة عبيد بن عمير: كان عبيد بن عمير الليثي يقص في المسجد الحرام ويقعد فيما بين زمزم والحجر^(٤). ولقد استأذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في ذلك وهو أول من قص في عهده^(٥)، وقد عرف بأنه قاص مكة، فعن عبد الله بن أبي مليكة قال: ذهبت أنا وعبيد بن عمير الليثي حتى دخلنا على عائشة أم المؤمنين فقالت: يا ابن قتادة، قال لبيك يا أمه، قالت: خفف عن الناس القصص ولا تملهم فيملوا، وكان يجلس في حلقة بعض الصحابة

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ٥٤٣/٤.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٣٠٩/٥-٣١٠.

(٣) المرجع السابق، ٣١٠/٥.

(٤) أحمد بن زهير بن حرب (ابن أبي خيثمة)، أخبار المكيين، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٥٠.

رضوان الله عليهم كأمثال ابن عباس وابن عمر، وكان الناس يستفتون ابن عمر، فكان يقول: خلوا بيننا وبين قاصنا^(١).

- اللقاءات والحلقات التعليمية في موسم الحج: حيث كانت فرصة للناس أن يستفيدوا من كبار الصحابة ويعرضوا لهم ما يلتبس عليهم، فقد أتى قيس بن مروان إلى عمر بن الخطاب وهو يعرفه فقال له: جئت يا أمير المؤمنين من الكوفة، تركت بها رجلاً يملئ المصاحف عن ظهر قلب فغضب عمر وأنتفخ حتى كاد أن يملأ ما بين شعبي الرجل، ثم قال: ومن هو ويحك؟ فقال: ابن مسعود.. فما زال يطفئ غضبه ويسري عنه حتى عاد إلى حاله^(٢).

وكان عثمان بن عفان يعقد لقاءه العلمي في إلقاء القرآن في موسم الحج وقد استطاع بعض التابعين أن يتلقى منه ويأخذ القرآن عنه كعبد الله بن عامر^(٣). ورأى علي بن أبي طالب رجلاً يسأله عشية عرفة، فقال: ويحك تسأل في هذا اليوم غير الله!، وروي عنه فقال: «يا معشر الفتيان حصنوا أعراضكم بالأدب ودينكم بالعلم، وكان إذا انصرف من صلاته أقبل على الناس بوجهه فقال: كونوا مصابيح الهدى، ولا تكونوا أعلام ضلالة، واكرهوا المزاح بما يسخط الله، وليهن عليكم الهم فيما يرضي الله، علموا الناس الخير بعبر ألسنتكم، وكونوا دعاة لهم بفعلكم، والزموا الصدق والورع»^(٤).

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٨-٢٥١.

(٢) سبق تخريجه، انظر ص.

(٣) المرجع السابق، ٢٩٢/٥.

(٤) أحمد بن إسحاق اليعقوبي، مرجع سابق، ١٤٦/٢.

ويعتبر موسم الحج فرصة للمراجعة والمذاكرة للعمل فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف بمنى فوجدني وأنا انتظره وذلك بمنى في آخر حجة حجه عمر بن الخطاب»^(١).

وكان الناس يبحثون عن الصحابة لينهلوا منهم العلوم والمعارف وليتعلموا أمور دينهم. فقد حج سليمان بن الربيع وقال: انطلقت في رهط من نساك أهل البصرة إلى مكة فقلنا لو نظرنا رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتحدثنا إليه فدللنا على عبد الله بن عمرو بن العاص، فأخذوا يبحثون عنه حتى وجدوه جالساً في البيت الحرام^(٢).

ولقد كان لعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله - رضي الله عنه - جهوداً في موسم الحج في تعليم الناس، وتفقيهم أمور دينهم، يروي نافع مولى عبد الله أن ابن عمر وابن عباس كانا يجلسان للناس عند قدوم الحاج، قال: فكنت أجلس إلى هذا يوماً وإلى هذا يوماً، فكان ابن عباس يحدث ويفتي في كل ما قال عنه، وكان ابن عمر ما يرد أكثر مما يفتي»^(٣).

وقد فسر ابن عباس سورتي البقرة والنور آية آية في موسم الحج^(٤)، وأما جابر بن عبد الله يقول عنه عطاء بن أبي رباح: كنا نكون عند جابر بن

(١) أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض، السعودية، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، (د.ت)، ١٩١/١، رقم (٣٩١).

(٢) سبق تخريجه في الفصل الأول - العامل الديني - (الحج والعمرة)، ص.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، مرجع سابق، ١٦٧/٣١.

(٤) عمر بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، مرجع سابق، ٦٦/١.

عبد الله فيحدثنا فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه، فكان أبو الزبير من أحفظنا للحديث^(١).

وفي هذا الموسم يكثر طلاب العلم الارتحال لطلب العلم وللتثبت من حفظهم فعن أبي عثمان الهندي قال: بلغني عن أبي هريرة حديثاً أنه قال: «إن الله ليكتب لعبده المؤمن الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة، فحجبت ذلك العام ولم أكن أريد الحج إلا للقاءه في أمر هذا الحديث، فأتيت أبا هريرة، فقلت له: يا أبا هريرة، بلغني عنك الحديث، فحجبت هذا العام لكي ألقاك وأسألك عنه، قال أبو هريرة: فما هو؟ قلت: «إن الله ليكتب لعبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة...»^(٢).

ولم يكن هذا الأمر محصوراً في الرجال، بل حتى النساء كن لهن حلقات تعليمية ولقاءات علمية يتدارسن العلوم بينهن، أو يقمن بالرواية عما سمعوه ورووه، فهذه صفية بنت شيبة بن عثمان، يقول عنها الإمام الذهبي: «الفقيهة، العالمة، أم منصور القرشية العبديّة المكية^(٣)، واشتهرت بالرواية عن زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم. فروى الناس عنها وأكثروا من روايتها^(٤)، يقول عطاء بن أبي رباح حدثني صفية بنت شيبة عن امرأة يقال لها حبيبة بنت أبي تجرة»^(٥).

(١) مصنف بن أبي شيبة، مرجع سابق، ٥/٤.

(٢) أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب العلم، تحقيق نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م، ص ١٣٢-١٣٣.

(٣) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ٥٠٧/٣-٥٠٨.

(٤) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٤٦٦/٨.

(٥) المرجع السابق، ٢٤٧/٨.

ثالثاً: مجالس الخلفاء:

كان للخلفاء الراشدين مجالس يجلسون فيها إلى الناس وكانت منازلهم مفتوحة أمام الجميع، وفيها علم ودراسة وتذكير وتعلم، ومن ذلك عندما قدم أهل اليمن على أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أيام خلافته، فجعلوا يقرئونهم القرآن ويبكون، فقال أبو بكر - رضي الله عنه - هكذا كنّا^(١)، وأما عمر - رضي الله عنه - فكان من جلسائه في منزله أهل القرآن^(٢). كهولاً كانوا أم شباباً، وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت أبي يقول: رأيت عمر بن الخطاب يدعو عبد الله بن عباس للمعضلات، ثم يقول: قد جاءتك معضلة، ثم لا يجاوز قوله، وإن حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار^(٣). وفي رواية أخرى أنه رضي الله عنه إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يبتغي حدة عقولهم^(٤)، ولم تكن منازل الخلفاء ذات صبغة واحدة، وإنما كانت متنوعة العلوم والمعارف.. ومن ذلك أن عمر رضي الله عنه دعا بكرسي فجلس عليه ودعا بالخطيئة أجلسه بين يديه، ودعا بإشفا وسفرة يؤهمه أنه عامل على قطع لسانه حتى ضج من ذلك^(٥)، وأصبحت منازل الخلفاء محاضن تربية إيمانية مرتكزة على التقوى فعن ابن عباس قال: دعاني عمر، فإذا حصير بين يديه، عليه ذهب منثوراً نثر الحناء، فقال ابن عباس أتدري ما الحناء؟ فنكر التبن، فقال: هلم فاقسم بين قومك،

(١) مصنف بن أبي شيبة، مرجع سابق، ٥/٤.

(٢) أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، ٤١٨/١٣.

(٣) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٤٣٦/٢.

(٤) عمر بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، مرجع سابق، ٣٦٤/١.

(٥) علي بن محمد الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، مرجع سابق، ٢٤٩.

فالله أعلم حيث حبس هذا عن نبيه صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر، الخير أراد بذلك أم الشر؟ قال: فاكتب أقسم، فسمعت البكاء، فإذا عمر يبكي ويقول في بكائه ويقول في بكائه: كلا والذي بعثه بالحق، ما حبس هذا عن نبيه وعن أبي بكر إرادة الشر بهما وإعطاء عمر إرادة الخير به»^(١).

ويمثل الخلفاء في منازلهم أنموذجًا للمربين القدوات الذين سخرُوا أنفسهم لتربية الأمة وتعليمها.. فهذا عثمان بن عفان لا يألوا جهدًا في تعليم القرآن الكريم رغم عدم تفرغه لذلك، وانشغاله بأعباء الخلافة، يقول أبو عبد الرحمن السلمي: «قرأت القرآن على عثمان - رضي الله عنه - فقال لي: إنك إذن تشغلني عن النظر في أمور الناس فامض فعليك بزيد بن ثابت، فإنه يجلس للناس، ويتفرغ لهم، ولست أخالفه في شيء من القرآن، فقال: وكنت ألقى عليًا، فأسأله، فيخبرني ويقول: عليك بزيد، فأقبلت على زيد، فقرأت عليه القرآن ثلاثة عشرة مرة»^(٢). وأصبح في حس الخلفاء الراشدين التربية والتعليم والتطبيق العملي لما تعلموه من النبي صلى الله عليه وسلم في سائر شؤون حياتهم العابدية والاجتماعية.. وغيرها.

يقول الحسين بن علي رضي الله عنهما: «دعاني أبي بوضوء، فقربته له، فبدأ بغسل كفيه ثلاث مرات.. ثم شرب من فضل وضوئه قائمًا، فعجبت، فلما رأيته، قال: لا تعجب فإني رأيت أباك النبي صلى الله عليه وسلم يصنع مثل ما رأيته صنعك يقول: لو وضوئه هذا وشرب فضل وضوئه قائمًا، وفي رواية أن عليًا قال: «من سره أن ينظر إلى ظهور رسول الله صلى الله عليه

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام، الأموال، مرجع سابق، ص ٢٦٤.

(٢) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ٢٧٠/٤-٢٧١.

وسلم فهذا طهوره»^(١). واشتهر علي رضي الله عنه بكلماته وحكمه التربوية ونصائحه ووصاياه التعليمية من خلال مجلسه في منزله..

يقول الفرزق: «دخلت مع أبي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فسلم عليه أبي، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا غالب بن صعصعة، قال: من هذا الذي معك؟ قال: ابني وهو شاعر، وإن شئت أنشدك، فقال علي: علمه القرآن، فهو خير له من الشعر»^(٢).

وهكذا كانت منازل الخلفاء ومجالسهم ملجأ لكل قاصد للعلم وطالبه، ووسيلة للازدهار الحركة العلمية في تلك الفترة الزمنية، ومؤسسة من المؤسسات العلمية، التي كان لها دوراً في إثراء التربية والتعليم في المجتمع الإسلامي.

رابعاً: منازل علماء الصحابة:

فعن أبي صالح قال: لقد رأيت من ابن عباس رضي الله عنهما مجلساً لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها فخراً، لقد رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق فما كان أحد يقدر على أن يجيء ولا أن يذهب، قال فدخلت عليه فأخبرته مكانهم على بابه فقال لي: ضع لي وضوءاً: قال: فتوضأ وجلس وقال: اخرج وقل لهم: من كان يريد أن يسأل عن القرآن وحروفه وما أراد منه فليدخل! قال: فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت

(١) المبارك محمد بن الأثير الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، مرجع سابق، ١٥٤-١٥٠/٧.

(٢) أحمد بن مروان الدينوري، المجالسة وجواهر العلم، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية بالبحرين ودار ابن حزم بالرياض، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ٣٥٥/٤.

والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثل ما سألوها عنه أو أكثر، ثم قال: أخوانكم: فخرجوا، ثم قال: أخرج فقل: من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل! قال: فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثل ما سألوها عنه أو أكثر ثم قال: أخوانكم! فخرجوا، ثم قال: أخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل! فخرجت فقلت لهم، قال فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله ثم قال: أخوانكم، فخرجوا، ثم قال: أخرج فقل: من أراد أن يسأل عن الفرائض وما أشبهها فليدخل! قال: فخرجت فأذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله ثم قال: أخوانكم فخرجوا، ثم قال: أخرج فقل: من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل! قال: فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرة فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله. قال أبو صالح: فلو أن قريشا كلها فخرت بذلك لكان فخراً! فما رأيت مثل هذا لأحد من الناس»^(١).

فهؤلاء العلماء قد نذروا أنفسهم لله، فسخروا إمكاناتهم ومنازلهم ومواهبهم لإنارة الناس، وحتى مع وجود الحلقات التعليمية إلا أنها لم تكن كافية لإشباع نهم أناس من العلم، فصاروا يرافقون علمائهم حتى في دورهم. يقول عطاء: كنا نكون عند جابر بن عبد الله فيحدثنا، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا

(١) أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مرجع سابق،

حديثه^(١). وكانت صفية بنت شيبه تفتح بيتها للسائلين عن أحاديث أمهات المؤمنين^(٢).

وهكذا نجد أن الوسائط التعليمية في عصر الخلفاء الراشدين قد تعددت وتتنوع. فما كان منها منظماً مثل الكتاب والحلقات العلمية في المسجد، وما كان منها موسماً مثل الحلقات واللقاءات العلمية في موسم الحج فأصبحت منطلقاً للحركة العلمية بعد ذلك في العصر الأموي.

مميزات الحركة العلمية في مكة في زمن الخلفاء الراشدين:

- استثمرت مواسم الحج والعمرة في تأسيس مركز تعليمي يتجمع المسلمون فيه من مختلف الأقطار والأمصار.
- إقبال كثير من الموالى على العلم والتعلم على أيدي فقهاء الصحابة ومما ساعد على هذا مجانية التعليم ووجود الأعطيات للمعلمين، وتشجيع الصحابة رضوان الله عليهم لذلك.
- الدافعية الذاتية والرغبة الملحة والنهم في طلب العلم لدى كثير من أبناء المسلمين وخصوصاً من أقام بمكة أو جاء مجاوراً لها.
- التنوع المفيد للعلوم، والتدرج في السلم التعليمي دون تكلف.
- التغير الفكري والنقلة النوعية للمجالس القديمة التي كانت في العهد الجاهلي وزمن النبي صلى الله عليه وسلم وبين ما كانت عليه في زمن الخلفاء الراشدين.
- الأرضية الثقافية والخلفية التاريخية والعوامل الاجتماعية والاقتصادية ساعدت كثير في النهضة التعليمية.

(١) أحمد بن زهير (ابن أبي خيثمة)، أخبار المكيين، مرجع سابق، ص ٢٨٢.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٣١٣/٨.

• الفصل الثالث: المعلمون في مكة في عهد الخلفاء الراشدين:

أولاً: مكانة التعليم في مكة:

تعتبر مكة حاضرة العلم والثقافة - كما سبق بيانه في العالم الثقافي - ومنها تخرج كثير من الصحابة رضوان الله عليهم فأصبحوا ذا مكانة علمية في القراءة والكتابة، وجاء الفتح الإسلامي لمكة مهذباً ومشجعاً على العلم والتعليم، فكان من أهل مكة أن أقبلوا على حلقتي معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري ليتعلموا القرآن وليفقهوا في دينهم^(١).

ثم استلم راية العلم وتعلم الناس الصحابي الجليل عبد الله بن السائب^(٢). والذي يُعد من أوائل المكيين إسهاماً في هذا المجال^(٣).

وقد حرص الخلفاء الراشدين على أن يكون أمير مكة من قبيلهم ممن يعرف بالمكانة العلمية، فعن عامر بن واثلة أبي الطفيل، قال: إن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يعُستقان - وكان عامله على مكة - فقال له عمر رضي الله عنه -: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أبيزى. قال: ومن ابن أبيزى؟ قال: رجل من موالينا فقال عمر - رضي الله عنه -: استخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله - عز وجل - عالم بالفرائض فقال عمر - رضي الله عنه -: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله - عز وجل - يرفع لهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين»^(٤).

(١) سبق تخريجه، ص

(٢) للاستزادة انظر: تهذيب التهذيب ٣١١/٤، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ١٣٢/١، سير أعلام النبلاء ٣٨٨/٣.

(٣) الفاكهي، مرجع سابق، ١٦٥/٣.

(٤) الفاكهي، مرجع سابق، ١٦٥/٣.

فالناس على دين ملوكهم، فمتى ما كان الأمير أو الخليفة ذو همة عالية لطلب العلم ونشره، تجد الناس حوله يماثلونه ويحاكونه الاهتمام، لذا نجد أن بعض التابعين كان تأسيسهم العلمي في مكة كعطاء بن أبي رباح^(١)، وغيره لتوفر الأجواء العلمية، ولمكانة العلم والتعليم عند أهل مكة.

ولم يكتف الصحابة من نشر العلم، بل قاموا بتقويمه وإصلاح الاعوجاج، فهذه عائشة رضي الله عنها تتصح عبيد بن عمير الليثي قاص أهل مكة فتقول له: «يا عبيد إذا ذكرت فأخف فإن الذكر يقتل»^(٢).

ولم تكن مكانة التعليم عند رجال مكة فحسب، بل حتى عند نساء مكة فقد حرصن على أن ينهلوا العلم لما شعروا من أهميته، فهذه صفية بنت شيبة بن عثمان اشتهرت بروايتها عن أمهات المؤمنين وغيرهن، لذا روى الناس عنها فأكثروا^(٣). ومما ساعد على تأكيد مكانة التعليم إسهامات الصحابة رضوان الله عليهم في مواسم الحج والعمرة - كما اتضح في الفصل السابق وسيوضح في الفصل القادم - حيث حرص أبناء مكة على انتهاز فرصة وجود الصحابة مما جعلهم يزيدون من رصيدهم العلمي بالنهل من فيض علوم الصحب الكرام ومعارفهم.

فظل شباب مكة يتدارسون ما حفظوه من القرآن، وزاد عدد الكاتبين الذين حقلوا بتدوين ما تلقنوا من آياته عن شيوخ الصحابة وكبار المهاجرين.

(١) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق ٨١/٥.

(٢) أحمد بن زهير بن حرب (ابن أبي خيثمة)، أخبار المكيين، مرجع سابق، ٢٥١.

(٣) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق ٤٦٦/٨، وللتعرف على كثرة روايتها. وممن روى عنها انظر: تهذيب التهذيب ٤٨٤/١٠، تعريف التهذيب ٨٦٧/٢، أسد

الغابة ١٧٣/٧، سير أعلام النبلاء ٥٠٧/٣.

وظل المسجد الحرام على صغره يزدحم في هذا العهد برجال الحديث والقراء وأصحاب الفتوى، وظلت حلقاتهم تناقش تفسير الآيات وتُقارن بينها وبين ما عرفت عن القواعد في لغة أبائهم من قریش^(١).

ثانيًا: المعلمون من الصحابة في العهد الراشدي:

- كما سبق بيانه - أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المستقرين بمكة لم يكونوا - أول الأمر - من فقهاء الصحابة الكبار ولا من محدثيهم، أو قرائهم؛ لأن معظمهم أسلم عام الفتح، ولم يلزموا رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة طويلة تؤهلهم ليكونوا معلمين، لذا يرى الباحث أن المبحث ينقسم إلى قسمين وهما:

١- المعلمون من الصحابة في مواسم الحج.

٢- المعلمون من الصحابة المستقرين بمكة.

ولبيان ذلك:

١ - المعلمون من الصحابة في موسم الحج وهم:

• عمر بن الخطاب:

لم يزل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يحج بالناس في كل سنة خلافته كلها فحج بهم عشر سنين ولواء، وحج بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، في آخر حجة حجها بالناس سنة ثلاث وعشرين، واعتمر عمر في خلافته ثلاث مرات^(٢)، وفي حال وجوده في الحرم المكي يحرص الصحابة على التعلم منه، ولا يشترط أن يكون علمًا معرفيًا فقد يكون علمًا خلقيًا، فعن

(١) أحمد السباعي، تاريخ مكة، مطابع الصفاء، ط٨، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ -

١٩٩٩م، ٨٠/١.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات، مرجع سابق، ١٥١/٣.

أم بكر بنت المسور عن أبيها المسور بن مخرمة قال: كنا نلزم عمر بن الخطاب نتعلم منه الورع^(١)، وفي المواسم يتعلم الناس كيف يحاسب عمر عماله وولاته فعن عطاء قال: كان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافوه بالموسم فإذا اجتمعوا قال: أيها الناس، إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أشارككم ولا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فينكم بينكم...^(٢).

وكان عمر يعلم الناس أهمية الإتياع وخطورة الابتداع في دين الله والتتبع فيه. فعن معرور بن سويد الأسدي قال: وافيت الموسم مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما انصرفنا إلى المدينة انصرفت معه، فلما صلى لنا صلاة الغداة فقرأ فيها: (ألم تر كيف عل ربك) و (إيلاف قریش) ثم رأى ناساً يذهبون مذهباً، فقال أن يذهب هؤلاء؟ قالوا: يأتون مسجدًا هنا صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، يتبعون آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعاً، من أدركته الصلاة في شيء من هذه المساجد التي صلى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فليصل فيها وإلا فلا يتعمدها^(٣).

• عثمان بن عفان:

كان لعثمان بن عفان رضي الله عنه جهوداً كبيرة في تعليم القرآن الكريم، وقد أخذ عنه بعض أهل مكة كالمغيرة بن أبي شهاب المخزومي^(٤).

(١) المرجع السابق، ١٥٤/٣.

(٢) المرجع السابق، ١٥٦/٣.

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، مرجع سابق، ٣٤٦/١.

(٤) محمد بن أحمد الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق طيار

التي قولاج، مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي - استانبول -

تركي، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، ١٠٢/١.

واعتبره الذهبي من ذوي طبقات القراء أولى الإسناد والإتقان، وكان أول من تحدث عنهم في الطبقة الأولى هو عثمان بن عفان^(١)، والذي أخذ عنه عبد الله بن عامر عندما حج مع والده وهو صغير^(٢). وكانت هذه الدروس في القراءات في موسم الحج، حيث حج رضي الله عنه في خلافته كلها بالناس عشر سنين ولأء إلا السنة التي حوضر فيها فوجه عبد الله بن عباس على الحج بالناس^(٣).

• عبد الله بن عباس:

مؤسس الحركة العلمية بمكة ورائدها وكان مدنياً كغيره من الصحابة، قبل أن يسكن مكة ويستوطنها، وأكثر حياته بالمدينة، إذ لم يغادرها إلا في خلافة علي رضي الله عنه لما ولاه البصرة، بعد موقعة الجمل سنة (٣٦)^(٤). وبالمدينة نهل غزير علمه، وتفقّه على كبار الصحابة، ولم يقطن بمكة إلا بعد عودته من البصرة.

يقول العلامة المباركفوري «كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أيضاً بالمدينة باستمرار ما عدا أنه كان مقيماً في المدينة حتى في هذه الفترة أيضاً»^(٥).

(١) المرجع السابق ١٠/١٠٢.

(٢) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ٥/٢٩٢-٢٩٣.

(٣) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٣/٣٦.

(٤) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ٤/٥٤٣.

(٥) عبد السلام المباركفوري، سيرة الإمام البخاري سيد الفقهاء وإمام المحدثين، نقله إلى العربية وعلق عليه الدكتور عبد العليم البستوي، مكتبة دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ١٤٢٢هـ، ٢/٦٣٤.

إلا أنه قد «ذاع صيته في العالم الإسلامي، وأصبح مركزاً للإشعاع العلمي، والتف حوله من طلبة العلم، حتى كان يضاهي به مواكب الأمراء والملوك»^(١).

وكان له مجالس علم يتحدث عنها تلاميذه ومنها:

- قال عطاء: «ما رأيت مجلساً أكرم من مجلس ابن عباس أصحاب القرآن عنده يسألونه، وأصحاب العربية عنده يسألونه، وأصحاب الشعر عنده يسألونه، وكلهم يصدر عن رأي واسع»^(٢).

- وعن مجاهد قال: (ما رأي مجلس مثله مجلس ابن عباس، ولقد مات يوم مات وإنه لحبر هذا الأمة)^(٣).

وكان لابن عباس نشاط ملموس في مواسم الحج، حيث يقول: كنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف بمنى، وذلك في آخر حجة حجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٤).

وعن شفيق بن سلمة قال: «خطبنا ابن عباس وهو على الموسم، فجعل يقرأ سورة البقرة، فجعل يفسر ويقرأ»^(٥)، وفي رواية أخرى: «فافتتح سورة

(١) محمد مصطفى الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ١/١١٦.

(٢) أبو بكر أحمد الدينوري، المجالسة وجواهر العلم، مرجع سابق، ٤/٦٤.

(٣) المرجع السابق، ٤/٦٢.

(٤) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد شاكر، مرجع سابق، ١٩١/١ رقم (٣٩١).

(٥) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، مرجع سابق، ٣/٣٥١.

النور، فجعل يقرأ ويفسر^(١)، وقد يكون أم الروائيتين حدثتا في زمن مختلف عن الآخر، فابن عباس تولى إمارة الحج أكثر من مرة في عهد الخلفيتين: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب^(٢).

ومن كثرة تردد ابن عباس على مكة إلى أن مكث بها بعد مقتل علي رضي الله عنه. فإنه استطاع أن يكون قاعدة لا بأس بها من التلاميذ النجباء ومن هؤلاء:

• عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة:

حيث كتب إليه ابن عباس قضاء علي بن أبي طالب، فقد أخرج الإمام مسلم في «المقدمة» عن ابن مليكة قال: كتبت إلى ابن عباس أسأله أن يكتب لي كتابًا ويخفي عني، فقال: «ولد ناصح، أنا أختار له الأمور اختيارًا، وأخفي عنه» قال: فدعا بقضاء علي فجعل يكتب منه أشياء^(٣).

• عكرمة مولى ابن عباس:

وقد تحمل عن ابن عباس علمًا كثيرًا طيبًا، وحدث عنه من علماء الأمصار التي دخلها، وكان ابن عباس يقول عنه: «ما حدثكم عكرمة عني فصدقوه فإنه لم يكذب علي»^(٤).

(١) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ٣/٣٥١.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٣/٣٦.

(٣) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، ١/١٩٧.

(٤) أحمد بن علي بن حجر، تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ٥/٦٣٢.

• عطاء بن أبي رباح:

تابعي وكان مفتي أهل مكة في زمانه^(١)، وكان ابن عباس يقول: «تجتمعون إليَّ يا أهل مكة وعندكم عطاء...»^(٢).

• مجاهد بن جبر:

ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر بن الخطاب، وروي عنه أنه قال: «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة»^(٣). ويقول أيضاً: «ختمت القرآن على ابن عباس تسع عشرة ختمة»^(٤). وقد تحدث الإمام ابن كثير عن مكانة تلاميذ ابن عباس في التفسير وخاصة مجاهد. فقال: «كان مجاهد آية في التفسير» وقد قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها»^(٥).

وعدد من التلاميذ النجباء آخرين كسعيد بن جبير وطاووس بن كيسان وجابر بن زيد، ولذلك يقول الإمام علي بن المديني: «وكان أصحاب ابن عباس ستة: عطاء، وطاووس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وجابر بن زيد، وعكرمة...»^(٦).

(١) أحمد بن عبد الله العجلي، التاريخ الثقات، بترتيب الحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق عبد المعطي قلعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م، ص ٣٣٢.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ٥/٥٦٨.

(٣) محمد بن علي الداودي طبقات المفسرين، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ٣٠٦/٢.

(٤) علم الدين السخاوي، جمال القراء وكمال الإقراء، تحقيق علي حسين البواب، مكتبة التراث بمكة المكرمة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ٢/٤٤١.

(٥) إسماعيل بن كثير - تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ١/١٥.

(٦) يعقوب بن سفيان الفسوي، المعرفة والتاريخ، رواية عبد الله بن جعفر بن درستوبة النحوي، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، (١/٧١٣-٧١٤).

• عبد الله بن عمر:

«وكان من صالحى الصحابة وقرائهم وزهادهم، ولم يشتغل فى هذه الدنيا بالصفرء ولا بالتمتع بالبيضاء، ولا ضم درهماً إلى درهم، وكان من أكثرهم تنبهاً لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم استعماً لها، اعتزل الفتن، وقعد فى البيت عن الناس إلا أن يخرج حاجاً أو معتمراً أو غازياً، إلى أن أدركته المنية على حالته تلك بمكة وهو حاج، سنة ٧٣هـ، وبها دفن رضى الله عنه»^(١).

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - «فيه ما كان بعض الصحابة عليه من توقي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا عند الحاجة، خشية الزيادة والنقصان، وهذه كانت طريقة ابن عمر ووالده عمر وجماعة، وإنما كثرت أحاديث ابن عمر مع ذلك، لكثرة من كان يسأله ويستفقيه»^(٢).

وقد حرص أهل مكة من الاستفادة من ابن عمر رضى الله عنهما، فتنلذذ على يده نخبة من التابعين منهم:

- مجاهد بن جبر.

- عمرو بن دينار الجمحي.

- عبد الله بن عبد الله أبي مليكة القرشي، وكان ثقة كثير الحديث، وقد أدرك ثلاثين من الصحابة، وقال ابن حبان: رأى ثمانين من الصحابة^(٣).

(١) محمد بن حبان البستي، مشاهير علماء الأمصار، مرجع سابق، ص ١٦-١٧.

(٢) أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري، مرجع سابق، ٢١٧/١.

(٣) أحمد بن علي بن حجر، تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ٣٨٦/١.

- عطاء بن أبي رباح.

- عبيد بن عمير، قاص أهل مكة.

• جابر بن عبد الله:

اشتهر بعطاءه العلمي في المدينة، وله جهود دعوية وعلمية، ولم تكن هذه الجهود محصورة في المدينة المنورة، بل استطاع أن يقيم ويؤسس حلقة علمية بمكة، حيث حفظ أبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين إحدى هذه الحلقات العلمية التي أقيمت في دار جابر رضي الله عنه، وحضرها جماعة من الرجال، وحدث فيها جابر بمنسكه المشهور في حجة الوداع، فروى مسلم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: دخلنا على جابر بن عبد الله فسأل عن القوم، حتى انتهى إليّ، فقلت: أنا محمد بن علي بن حسين، فأهوى بيده إلى رأسي، فترع زري الأعلى، ثم نزع زري الأسفل، ثم وضع كفه بين شديي، وأنا يومئذ غلام شاب، فقال: «مرحباً بك يا ابن أخي، سل عما شئت، فسألته...»^(١).

وقد استفاد المكيون من الرواة من جابر بن عبد الله فترة مجاورته لمكة وخاصة في أواخر حياته، فقد ثبت أن عطاء وعمرو بن دينار التقيا به في ذلك الحين، قال سفيان بن عيينه: «وإنما لقي عمرو وعطاء - إن شاء الله تعالى - جابراً في سنة جاور فيها»^(٢). وقد ذكر الفاكهي أن مدة مجاورة

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، ٤٢٠/٨ -

٤٢٢، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم (١٢١٨).

(٢) عبد الهل بن الزبير الحميدي، مسند الحميدي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي،

دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مكتبة المتنبّي، القاهرة، (د.ت)، ٢٢٩/١ رقم

(٤٩٠).

جابر بن عبد الله ستة أشهر فعن أبي سفيان قال: «جاورت مع جابر بن عبد الله رضي الله عنهما بمكة في بني فهر ستة أشهر»^(١).

وروى ابن عجلان، عن عبيد الله بن مقسم قال: «رحل جابر بن عبد الله في آخر عمره إلى مكة في أحاديث سمعها، ثم انصرف إلى المدينة»^(٢).

ومن خلال فترة إقامته استثمر المكيون مدة مجاورة جابر رضي الله عنه وسمعوا منه أحاديث كثيرة ولا سيما أن جابرًا رضي الله عنه كان منيرًا بإقامة حلقات العلم ومجالس الفتوى، سواءً في فترة مجاورته أم في مواسم الحج، وكان ممن تتلمذ عليه: مجاهد بن جبر وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار.

• عائشة رضي الله عنها:

كتب الله سبحانه وتعالى لنساء النبي صلى الله عليه وسلم أن يكن سفراءه إلى سائر الأمصار وكان لعائشة رضي الله عنها التقدم على سائر أزواجه صلى الله عليه وسلم في العلم والفقه، فهي أوسع منهن علمًا، وأكثر معرفة وإطلاعًا على أحواله وأخباره صلى الله عليه وسلم، وقد وصفها الذهبي بقوله «القرشية، التيمية، المكية، النبوية،... أفقه نساء الأمة على الإطلاق»^(٣).

وكانت كثيرة المراجعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحدث به حتى تعيه وتفقه وجهه فقد أخرج البخاري من طريق ابن أبي مليكة: «أن

(١) الفاكهي: أخبار مكة، مرجع سابق، ٣٨٧/٢.

(٢) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ١٩١/٣.

(٣) محمد ابن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ١٣٥-١٤٠.

عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه...». ويعلق ابن حجر على ذلك: «وفي الحديث ما كان عن عائشة من الحرص على تفهم معاني الحديث» وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتضجر من المراجعة في العلم»^(١).

وكان الصحابة يرجعون إليها فيما يشكل عليهم ويستتيرون برأيها، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: «ما أشكل علينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً»^(٢). وعن هشام بن عروة: أن أباه ذكر عائشة رضي الله عنها فقال: «كانت أعلم الناس بالحديث، وأعلم الناس بالقرآن وأعلم الناس بالشعر...»^(٣).

وعن عطاء بن أبي رباح قال: «كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس، رأيًا في العامة»^(٤)، وكانت رضي الله عنها تستثمر مواسم الحج في تثبيت أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم - كما سيأتي بيانه في الفصل القادم - وقد تتلمذ عليها كبار تلاميذ عبد الله بن عباس وهم:

عكرمة مولى ابن عباس، ومجاهد بن جبر، وعطاء ابن أبي رباح، حيث سمع منها في وقت مجاورتها بمكة، فقد كان هو وعمير بن عبيد الليثي يأتیان

(١) أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ٢٦٠/١

رقم (١٠٣) كتاب العلم، باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه.

(٢) محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الصحيح، مرجع سابق، ٧٠٥/٥، رقم (٣٨٨٣).

(٣) يعقوب بن سفيان الفسوي، المعرفة والتاريخ، مرجع سابق، ٤٨٩/١.

(٤) محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک، دار الفكر، بيروت، لبنان،

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، ١٥/٤ وانظر إلى تهذيب الكمال: مرجع سابق (٢٣٤/٣٥).

إليها وهي مقبلة في جوف ثبير، فيسألانها فتحدثهما من وراء حجاب^(١)، كما سمع منها أيضًا عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة^(٢)، وكريب مولى ابن عباس^(٣)، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي^(٤)، ومسكية أم يوسف بن مالك المكية^(٥)، وغيرهم.

وقد أثرت أم المؤمنين بمجاورتها وزيارتها لبلد الله الحرام، المجتمع المكي بعلمها وفقهها؛ مما كان له أثر كبير في الحياة العلمية بمكة.

٢ - المعلمون من الصحابة المستقرين بمكة:

وهم:

• عبد الله بن السائب^(*):

وهو عبد الله بن السائب بن أبي السائب، واسم أبي السائب: صيفي بن عائد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي اقارئ.

(١) قال الإمام بن حجر قوله (وهي مجاورة في حرف ثبير) وثبير الجبل المشهور الذي كانوا في الجاهلية يقولون له: أشرق ثبير كيما نغير، وهو جبل المزدلفة، لكن بمكة خمسة جبال أخرى يقال لكل منها ثبير. فيحتمل أن يكون المراد لأحدهما.. انظر: أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، (٦٠٧/٣) رقم الحديث (١٦١٨).

(٢) انظر أحاديث صحيح البخاري رقم (١٦١٨)، (٣٠٨٠).

(٣) انظر أحاديث صحيح البخاري رقم (١٠٣)، (٢٤٥٧) و(٢٩٣٥).

(٤) انظر صحيح مسلم رقم (١٣٣٣).

(٥) سنن الترمذي رقم (٨٨١).

(*) لاستزادة انظر: سير أعلام النبلاء ٣/٣٨٨، أسد الغابة ٣/٢٥٤، تهذيب التهذيب ٤/٣١١، معرفة القراء ١/١٣٢، جمال القراء ٢/٤٨٨.

أخذ عنه أهل مكة القراءة، وعليه قرأ مجاهد وغيره من قراء أهل مكة، سكن مكة وتوفي بها قبل أن يقتل عبد الله بن الزبير ببسير، تلقى عبد الله بن السائب القرآن على أبي بن كعب، وقال مجاهد رحمه الله «كنا نفخر على الناس بقاريننا عبد الله بن السائب وبفقيهنا عبد الله ابن عباس» ويعد ابن السائب من صغار الصحابة، وكان جده أبو السائب شريكاً للنبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة، ثم جاء بعد ذلك لبيبايعه، فقال: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: نعم، ألم تكن شريكاً لي فوجدتك خير شريك»^(١).

ثالثاً: المعلمون من التابعين في العهد الراشدي:

لم تذكر كتب التاريخ والتراجم أحد من التابعين كان معلماً في العهد الراشدي، سوى عبيد بن عمير بن قتادة الليثي - حسب ما توصل إليه الباحث -

وفيما يلي ترجمة له موجزة:

• عبيد بن عمير الليثي، يكنى أبا عاصم:

قال عنه الإمام الذهبي: «المكي، الواعظ، المفسر، ولد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وحدث عن أبيه، وعن عمر بن الخطاب، وعلي، وأبي ذر، وعائشة، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس، وطائفة»..^(٢).

(١) علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ٦٨١/٩ رقم (١٦١٤٤).

(٢) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ١٥٦/٤.

وقال العوام بن حوشب: رأى ابن عمر في حلقة عبيد بن عمير يبكي^(١).
وقال العجلي: «مكي تابعي، ثقة، وكان قاضي أهل مكة في زمانه، وهو من كبار التابعين، كان ابن عمر يجلس إليه، ويقول: لله در أبي قتادة ماذا يأتي به»^(٢).

واعتبره خليفة بن خياط من الطبقة الأولى من أهل مكة^(٣)، وكان يقص في المسجد الحرام ويقعد بين زمزم والحجر^(٤).

وكانت بداية مجلسه في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٥).

• صفية بنت شيبة بن عثمان:

ابن أبي طلحة بن عبد العزى بن عبد الدار بن قصي بن كلاب، الفقيه العالمية، أم منصور، القرشية، المكية الحجة، وأبوها من مسلمة الفتح، روت عن أمهات المؤمنين: عائشة، وأم حبيبة، وأم سلمة^(٦).

رابعاً: أثر المعلمين من الصحابة والتابعين على الحركة التربوية والتعليمية في مكة

المكرمة أثناء العهد الراشدي:

كان للصحابة الكرام أثر في كثير من جوانب الحياة التربوية والتعليمية في مكة، إلا أن هذه الآثار لم تكن في بداية العهد الراشدي وإنما كانت في

(١) أحمد بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، مرجع سابق، ٤٣١/٥.

(٢) أحمد بن عبد الله العجلي، تاريخ النقات، مرجع سابق، ص ٣٢١.

(٣) خليفة بن خياط، الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط ٢، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، ٢٧٩/١.

(٤) أحمد بن زهير بن حرب، أخبار المكيين، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(٦) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ٥٠٧/٣ - ٥٠٨.

أواخر عهد الصحابة الكرام، أي في بداية النصف الثاني من القرن الأول، ولا مانع من ذكر هذه الآثار لأنها كانت ممهدة لانطلاق ثورة تربوية علمية في بلد الله الحرام.

وقد أكد على ذلك الإمام الذهبي: «كان العلم بها يسيراً زمن الصحابة - يعني مكة - ثم كثر في أواخر عصر الصحابة وكذلك التابعين...»^(١).

١- تأسيس علم الرواية من خلال طلب التثبت والتيقن من الرواية كما فعلت عائشة رضي الله عنها مع عبد الله بن عمر بن العاص في موسم الحج^(٢).

قال الإمام الشافعي - رحمه الله - «وما زال أهل الحديث في القديم والحديث يثبتون، فلا يقبلون الرواية التي يحتجون بها، ويحلون بها، ويحرمون بها، إلا عن آمنوا، وإن يحدثوا بها هكذا، ذكروا أنهم لم يسمعوها من ثبت، كان عطاء بن أبي رباح يسأل عن الشيء فيرويه عن قبله، ويقول سمعته، وما سمعته من ثبت»^(٣).

٢- الاعتناء بالسنة النبوية من حيث التدوين والحفظ والرحلة في طلب أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم والاستعانة بأزواجه صلى الله عليه وسلم للتعرف على حياته الخاصة والعامة.

٣- ممارسة أساليب ووسائل حديثة في طلب العلم كطريقة العرض أو

(١) محمد بن أحمد الذهبي، الأمصار ذوات الآثار، مرجع سابق، ص ١٥٦.

(٢) انظر إلى الحديث رقم (٧٣٠٧) من صحيح البخاري وحديث رقم (٢٦٧٣) من صحيح مسلم.

(٣) محمد بن أدریس الشافعي - الأم - مرجع سابق (١٠٤/٦).

القراءة على الشيخ، وقد نص الحافظ ابن حجر على أن بين العرض والقراءة عمومًا وخصوصًا؛ «لأن الطالب إذا قرأ كان أعم من العرض وغيره، ولا يقع العرض إلا بالقراءة؛ لأن العرض عبارة عما يعارض من القراءة»^(١)، وما قصة مجاهد في عرضه على ابن عباس إلا أكبر شاهد.

٤- تأسيس ما يسمى بآداب الطلب والاستماع والجلوس إلى المعلم، وكان رأس هذا التأسيس في مكة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، والذي كان غاية في الأدب، وقمة في احترام مشايخه من كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، حتى استطاع أن يصل إلى ما عندهم ويجمع ما لديهم من كنوز المعرفة.

عن أبي سلمه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وجدت عامة علم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذا الحي من الأنصار، وإنني كنت لأتي باب أحدهم فأقبل ببابه ولو شئت أن يؤذن لي عليه لأذن لي، لقرايتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن كنت ابتغي بذلك طيبة نفسه»^(٢).

٥- بداية تأسيس علم الجرح والتعديل، هكذا بدأ أول عصر الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن وقت مبكر جدًا فيه، وقيل في فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه، بل قبل مقتل عمر رضي الله عنه على التشديد البالغ في رواية السنن وارتهايب من دواعي وقوع الخطأ فيها... ولا شك أن مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه كان ثلثة في حصن الإسلام، فلم تجتمع الأمة بعده على خليفة إلى اليوم^(٣).

(١) أحمد بن حجر العسقلاني - فتح الباري - مرجع سابق، ١/١٩٧.

(٢) يعقوب بن سفيان الفسوي، المعرفة والتاريخ، مرجع سابق، ١/٥٤٠.

(٣) الشريف حاتم بن عارف العوني، المنهج المقترح لفهم المصطلح، دار الهجرة، الخبر،

السعودية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ص ٢٨.

لذا كان ابن عباس يقول: «إنا كنا نحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لم يكن يُكذب عليه، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه»^(١).

• الفصل الرابع: العلوم المنتشرة في مكة في عهد الخلفاء الراشدين:

تمهيد:

أصبح لكل علم من العلوم بذرتة ونشأته في العهد الراشدي، وقد كان من العلوم ما استحدث كنتيجة طبيعية للمتغيرات الاجتماعية والسياسية، ولزيادة عدد المسلمين بسبب الفتوحات والتوسعات.

وفي الأسطر التالية سيتبين لنا العلوم المنتشرة في مكة في العهد الراشدي وهي كالآتي:

أولاً: العلوم الشرعية:

ويقص بها علوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلم الفقه وأصوله، علم السير والمغازي.

(١) علوم القرآن:

المراد علوم القرآن: العلم الذي يتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن من حيث معرفة أسباب النزول وجمع القرآن وترتيبه، ومعرفة المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن، وقد يسمى هذا العلم بأصول التفسير^(٢). ومن فروع هذا العلم:

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري - صحيح مسلم - شرح النووي، مرجع سابق،

١٩٥/١٠.

(٢) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١٧،

١٤١١هـ - ١٩٩٠م، ص ١٥-١٦.

١/ علم التفسير:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما التفسير فإن أعلم الناي به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم..^(١)».

عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: «قرأ ابن عباس سورة النور، ثم جعل يفسرها، فقال رجل: لو سمعت هذا الديلم لأسلمت»^(٢)، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: «مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن آية، فما استطيت أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجًا، فخرجت معه، فلما رجع وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة، فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه، فقلت أيا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة، قال: فقلت له: والله إني كنت لأريد أن أسألك عن هذه منذ سنة فما استطيت هيبة لك، فقال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فسلني عنه، فإن كنت أعلمه أخبرتك»^(٣). واشتهر ابن عباس في تفسير الآيات والسور في المواسم - كما سبق بيانه - مما كان له أثر في رسوخ هذا العلم في أهل مكة، حيث ثبت لمجاهد عرض القرآن على ابن عباس ثلاث مرات يوقفه عند كل آية يسأله عنها: فيم نزلت، وفيما كانت»^(٤).

(١) أحمد بن تيمية، مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، مرجع سابق، ٢٤٧/١٣.

(٢) يعقوب بن سفيان الفسوي، المعرفة والتاريخ، مرجع سابق، ٤٩٥/١.

(٣) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، ٣٤٠/١٠، كتاب الطلاق باب الإبلاء واعتزال النساء وتخييرهن، وقوله تعالى (وإن تظاهرا عليه).

(٤) عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، سنن الدارمي، مرجع سابق، ٢٧٣/١، رقم (١١٢٠).

٢ / علم القراءات:

«فهو علم يبحث عن أحوال القرآن من حيث ضبط ألفاظه وكيفية أدائها»^(١)، وقد حرص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تلقين الناس القراءات الصحيحة كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فعندما حج أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالناس في السنة التاسعة للهجرة وفيها نزلت صدر سورة التوبة أرسل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ليقرأها على أهل الموسم، فقرأها علي على الناس قبل يوم التروية بيوم، وفي يوم عرفة، وفي يوم النحر عند انقضاء خطبة أبي بكر في الأيام الثلاثة^(٢)، وفي العهد الراشدي، استمر عناية الصحابة بالقرآن الكريم ونطقه نطقاً سليماً خالياً من اللحن، واغتتموا موسم الحج ليؤكدوا على هذا الأمر، فقد رأى المسور بن مخرمة رجلاً من الأنصار يؤم الناي «أرث» أو «ألثغ» فأخبره وقدم رجلاً غيره، فغضب الرجل المؤخر وأتى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إن المسور أخرني وقدم رجلاً، فغضب عمر وجعل يقول: واعجباً لك يا مسور، وجعل يرسل إليه، فلما حضر قال لعمر: لا تعجل يا أمير المؤمنين، فوالله ما أردت إلا الخير، قال عمر: وأي خير في هذا؟ فقال: إن سوق عكاظ أو أرذي المجاز اجتمع فيه ناس كثير، عامتهم لم يسمع القرآن، وكان الرجل «أرث» أو «ألثغ» فخشيت أن يتفرقوا بالقرآن على لسانه، فأخبرته وقدمت رجلاً عربياً، فقال عمر: جزاك الله خيراً^(٣).

(١) محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق مكتب البحوث

والدراسات، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ٤/٢.

(٢) إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ٣٥/٥.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، مرجع سابق، ١٦٦/٥٨.

وقد وفق الله الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أنه جمع القرآن وقال: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»^(١).

قال القاضي أبو بكر الباقلاني: «لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإلغاء ما ليس كذلك»^(٢).

وقد قام بتأسيس علم القراءات في مكة عثمان بن عفان، حيث أخذ عن عثمان عبد الله بن عامر، وأخذ عن أبي بن كعب عبد الله بن السائب قارئ مكة - كما سبق بيانه -.

(ب) علم الحديث؛

استطاع الصحابة رضوان الله عليهم أن يربوا في التابعين ملكة نقدية جريئة، وحسًا علميًا مرهفًا مما جعلهم يتصدرون ويبرزون منهجيًا، حيث وضعوا أسسًا علمية متينة لنقد الروايات وتوثيقها، ومن أبرز معالم النقد عرض رواية الراوي عليه في أوقات مختلفة للتوثق من حفظه لها، وضبط لألفاظها، فعن عروة بن الزبير قال: قالت لي عائشة: «يا ابن أختي، بلغني

(١) أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، حديث رقم (٤٩٨٧)، باب جمع القرآن ١٥/٩.

(٢) طاهر الجزائري، التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا، ط ٣، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، ص ١٠٤.

أن عبد الله بن عمرو ماربّ بنا إلى الحج فألقه فسأله، فإنه قد حمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علماً كثيراً، قال: فلقيته فسألته عن أشياء يذكرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم... فكان فيما ذكر: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله لا ينتزع العلم من الناس انتزاعاً ولكن يقبض العلماء فيرفع العلم معهم ويبقى في الناس رؤوساً جهالاً يفتنونهم بغير علم فيضلون ويضلون»، قال عروة: فلما حدثت عائشة بذلك أعظمت ذلك، وأنكرته، قالت: «أحدثك أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول هذا؟ أن قال عروة: حتى إذا كان قايلاً، قالت له: «إن ابن عرم قد قدم فآلقه ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذي ذكره لك في العلم» قال: فلقيته فسألتها، فذكره لي نحو ما حدثني به في مرته الأولى. قال عروة: فلما أخبرتها بذلك، قلت: «وما أحسبه إلا قد صدق، أراه لم يزد فيه شيئاً ولم ينقص»^(١)، وفي رواية والله «لقد حفظ عبد الله بن عمرو»^(٢).

لقد كانت عائشة - رضي الله عنها - شديدة التحري والتثبت فيما ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ويضاف إليه، مثلها بقية الصحابة، وكانت تنظر إلى أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم على أنها صادرة عن معصوم لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ومن العلوم التي تأسست أيضاً علم الجرح والتعديل، فكان ابن عباس يشتد في أخذ الحديث وكان يقول: «إنا كنا نحدث عن رسول الله صلى الله

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، ٤٦٦/١٦،

رقم (٢٦٧٣)، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه.

(٢) أخرجه البخاري، في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يذكر من ذم الرأي

وتكلف القياس رقم (٧٣٠٧).

عليه وسلم إذا لم يكن يُكذب عليه، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه»^(١).

(ج) علم الفقه وأصوله:

* علم الفقه:

تأسس علم الفقه مع حلقة معاذ بن جبل التي أمر بها النبي صلى الله عليه وسلم عندما فتح مكة ليعلمهم السنن والفقه^(٢)، ومعاذ بن جبل هو أعلم الصحابة بالفقه لحديث النبي صلى الله عليه وسلم «أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل»^(٣).

وفي العهد الراشدي، كان الحديث والفقه في عرف السلف علمًا واحدًا لا انفصام بينهما، فلا يكون الفقيه إلا محدثًا، ولا يكون محدثًا إلا فقيهًا. فتميز بعض الصحابة في الفقه وعرف بذلك، يقول الإمام ابن حزم: «المكثرون من الصحابة رضوان الله عليهم فيما روى عنهم من الفتيا: عائشة أم المؤمنين، عمر بن الخطاب، ابنه عبد الله، علي بن أبي طالب، عبد الله بن العباس، عبد الله بن مسعود، زيد بن ثابت، فهم سبعة يمكن أن يُجمع من فتيا كل واحد منهم سفر ضخ، وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى ابن يعقوب بن أمير المؤمنين المأمون فتيا عبد الله بن عباس في عشرين كتابًا... والمتوسطون منهم فيما روي عنهم الفتيا رضي الله عنهم: أم سلمة أم المؤمنين، أنس بن مالك، أبو سعيد الخدري، أبو هريرة، عثمان بن عفان، عبد الله بن عمرو بن العاص، عبد الله بن الزبير، أبو موسى الأشعري، سعد بن أبي وقاص، جابر

(١) مقدمة صحيح مسلم، مرجع سابق، ١/١٩٥.

(٢) سبق تخريجه، أنظر ص ٨٦.

(٣) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٢/٤٢٥.

بن عبد الله، معاذ بن جبل، وأبو بكر الصديق، فهم ثلاثة عشر فقط، يمكن أن يجمع من فتيا كل أمريء منهم جزء صغيراً جداً»^(١).

وهذا يدل على عمق النشاط العلمي وانتشار الفقه في ذلك العهد، وقد ظهرت آثار الفتاوى الفقهية فيما بعد، حيث أصبحت مدارس فقهية مشهورة، كمدرسة عبد الله بن عباس في مكة ومدرسة عبد الله بن مسعود في الكوفة ومدرسة عبد الله بن عمر في المدينة، قال العلامة ابن القيم: «والدين والفقه والعلم انتشر في الأمة عن أصحاب ابن مسعود، وأصحاب زيد بن ثابت، وأصحاب عبد الله بن عمر، وأصحاب عبد الله بن عباس، فعلم الناس عامته عن أصحاب هؤلاء الأربعة، فأما أهل المدينة فعلمهم عن أصحاب زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر. وأما أهل مكة فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن عباس...»^(٢).

وتحقيق ذلك أن عطاء ابن أبي رباح أصبح أعلم الناس بالمناسك بعد عبد الله بن عباس^(٣). وكان للصحابية رضوان الله عليهم دوراً فقهياً في موسم الحج، فعن عبد الله بن الأرقم أنه خرج حاجاً أو معتمراً ومعه الناس وهو يؤمهم فلما كان ذات يوم أقام الصلاة صلاة الصبح: ثم قال ليتقدم أحدكم وذهب الخلاء، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا أراد أحدكم أن يذهب الخلاء وقامت الصلاة فليبدأ بالخلاء»^(٤).

(١) علي بن أحمد بن حزم، الأحكام في أصول الأحكام، تحقيق أحمد شاكر، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، (د.ت)، (٨٧/٥-٨٨).

(٢) محمد بن أبي بكر (ابن القيم)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، مرجع سابق، ١٧/١.

(٣) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٣٢٠/٥.

(٤) سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، وتعليق كمال يوسف الحوت، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ت)، ٧٠/١، رقم (٨٨).

ومارس الخلفاء الراشدين دور المفتين المعلمين للناس الفقه، فعندما سمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا محذورة وهو يؤذن قال له: ما أئدى صوتك أما تخشى أن ينشق مريطاوك من شدة صوتك، قال لأمير المؤمنين قدمت، فأحببت أن أسمعك صوتي، قال: يا أبا محذورة، إنك بأرض شديدة الحر، فأبرد عن الصلاة، قم أبرد عنها، ثم أذن، ثم أقم تجدني عندك^(١). لكن حقيقة الفقه والتفقه حدثت عندما أقام ابن عباس بمكة «إنما فقه أهل مكة حين نزل ابن عباس - رضي الله عنه - بأظهرهم^(٢) إلا أنه رضي الله عنهما قد هيا أهل مكة من قبل وذلك في موسم الحج ويشاركه في التهيئة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. يروي نافع مولى عبد الله بن عمر أن ابن عمر وابن عباس كانا يجليان للناس عند قدوم الحاج، قال: فكنت أجلس إلى هذا يوماً وإلى هذا يوماً، فكان ابن عباس يحدث ويفتي في كل ما قال عنه، وكان ابن عمر ما يرد أكثر مما يفتي»^(٣).

* علم أصول الفقه:

وأول من أسس هذا العلم بنظره الثاقب هو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وخاصة في مسائل الابتداع والحذر منه، وتأسيس قواعد شرعية ومناطق حكمية، ودليل ذلك حادثة أمره رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بايع عندها الصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة^(٤)، ويعلق الإمام الشاطبي على هذا الأمر

(١) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ١١٨/٣-١١٩.

(٢) الفاكهي، سبق تخريجه، أنظر ص ٦٩.

(٣) ابن عساكر، سبق تخريجه، انظر ص.

(٤) إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، مرجع سابق، ٣٤٦/١.

فيقول «قد يكون أصل العمل مشروعًا ولكنه يصير جاريًا مجرى البدعة من باب الذرائع...»^(١)، وهذا يعني أن قاعدة سد الذرائع كانت أصلاً واضحاً في مفهوم الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة عمر بن الخطاب.

(د) علم المغازي والسير:

كانت المدينة النبوية هي المعقل الأول الذي أحاط الإسلام بأسواره ويقول شيخ الإسلام ابن تيميه «أن أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة...»^(٢).

ثم حرص الصحابة نقل هذا العلم إلى مكة، وخاصة في موسم الحج، فعن أنس بن مالك، قال: كنا مع عمر بن الخطاب بين مكة والمدينة فأخذ يحدثنا عن أهل بدر فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرينا مصارعهم بالأمس، قال هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً، قال: عمر والذي بعثه بالحق ما أخطاء وصفه، فقد جعلوا في بئر، فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم فنأدى: يا فلان ابن فلان، يا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، فقال عمر: تكلم أجساداً لا أرواح فيها، فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم^(٣).

وقد ساق الذهبي بسنده في: السير عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر قال: «كان ابن عباس قد فات الناس بخصال العلم ما سبق، وفقه فيما احتجج إليه من رأيه.. ولقد كنا نحضر عنده فيحدثنا العشي كلها في المغازي، والعشي كلها في النسب...»^(٤).

(١) المرجع السابق، ٣٤٤/١.

(٢) أحمد بن عبد الحليم بن تيميه، مجموع الفتاوى، مرجع سابق، (٣٤٦/١٣).

(٣) سبق تخريجه، انظر ص (عامل الحج والعمرة).

(٤) محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ٣٥٠/٣.

(هـ) علم الأنساب:

عرف رجالات قريش بأنهم أكثر الناس علماً بالأنساب، فهذا الخليفة الراشد أبو بكر الصديق كان عالماً بالأنساب، وكان جبير بن مطعم أنسب قريش لقريش والعرب قاطبة، وكان يقول: «إنما أخذت النسب من أبي بكر الصديق، وكان أبو بكر الصديق من أنسب العرب...»^(١).

ثم جاءت فكرة الدواوين وتأسيسها في زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فكان فيها تفصيلاً دقيقاً لأفراد المجتمع الإسلامي، قبائله وأقوامه، رجاله ونسأؤه، وكبارَه وصغارَه، مواليدَه ومواليه، مرتباً ترتيباً مقنناً بحسب الأسبقية للإسلام والهجرة والنصرة، فقد روي عن هشام الكعبي قوله: «رأيت عمر بن الخطاب يحمل ديوان خزاعة حتى يتزل قديداً متأنية بقديد فلا يغيب عنه امرأة بكر ولا يثب فيعطيهن في أيديهن ثم يروح فيتزل عسغان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفي»^(٢). فالديوان ليس فائدته تنظيم العطاء فحسب وإنما له دور في حفظ الأنساب، وبعد ما استشار عمر الصحب الكرام في تدوين الدواوين. دعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وكانوا من نساب قريش فقال: اكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه على الخلافة، فلما نظر فيه عمر قال: لوددت والله أنه هكذا، ولكن أبدعوا بقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله...»^(٣).

(١) جلال الدين أبو بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٢) أبو الحسن البلاذري، فتوح البلدان، مرجع سابق، ٤٣٨.

(٣) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ٢٠٩/٤ - ٢١٠.

وقد كان للحج دوراً في إثراء علم الأنساب، وأن الكثير من نسابة العرب كانوا يتجمعون في هذا المحفل العظيم، فعن قيس بن أبي حازم قال: «دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب، فرأها لا تكلم، فقال: ما لها لا تكلم؟ قالوا: حجة مصمتة، قال لها: تكلمي، فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية. فتكلمت فقالت: من أنت؟ قال: امرؤ من المهاجرين، قالت: أي المهاجرين؟ قال: من قريش، قالت: من أي قريش أنت؟ قال: إنك لسؤال، أنا أبو بكر، قالت ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاءكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم، قالت: وما الأئمة؟ قال: أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى. قال: فهم أولئك على الناس»^(١).

وممن اشتهر بعلم الأنساب من قريش بعد أبي بكر الصديق: طليحة بن خويلد الأسدي، وعمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وصحار بن العباس، وحويطب بن عبد العزى القرشي، ومخرمة بن نوفل الزهري، وأم المؤمنين عائشة، وحكيم بن حزام، وجبير بن مطعم، ومعاوية بن أبي سفيان، وعقيل بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس^(٢).

(١) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المختصر، مرجع سابق، ١٣٩٢/٣، رقم (٣٨٣٤)، وانظر فتح الباري، ١٨٦/٧، باب أيام الجاهلية، كتاب مناقب الأنصار.

(٢) للاستزادة: انظر بكر بن عبد الله أبو زيد، طبقات النسابين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص ١٧-٢٥.

ثانيًا: علم اللغة العربية:

(أ) علم النحو:

حرص الخلفاء الراشدين على اللغة العربية والاهتمام بها، وخافوا عليها من اللحن، فعن محمد بن سيف أبو رجاء قال سألت الحسن عن المصحف أينقط بالعربية قال لا بأس به أما بلغك كتاب عمر بن الخطاب: «كتب تفقهوا في الدين وأحسنوا عبارة الرؤيا وتعلموا العربية»^(١).

ولم يكتف بذلك رضي الله عنه، فقد بلغ من شدة حرصه على إتقان الكتابة، أنه يُعاقب من لم يتمسك بقواعد المراسلة الكتابية، ومن يلحن في الكتابة من كتاب ولاته على الأمصار المختلفة، وذلك ما فعله مع كاتب أبي موسى الأشعري، حينما كتب إلى عمر بن الخطاب، «من أبو موسى» فكتب إليه عمر: «إذا أتاك كتابي، فأضرب كاتبك سوطاً وأعزله عن عملك»^(٢). وقد سار ابن عباس في مكة على طريقة عمر رضي الله عنهم أجمعين، حيث لاحظ اللحن في قصص عبيد بن عمير الليثي، فعن سعد بن سعيد بن عمير ابن أخي عبيد بن عمير قال: قال لي ابن عباس: إن عمك رجل عربي فما له يلحن^(٣). وقد شدد الصحابة في هذه المسألة لأتساع الفتوحات. واختلاط العرب بالعجم واندماجهم مع بعضهم البعض، إلا أن مكة أقل تأثراً من المدن

(١) عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، مرجع سابق، ٣٢٣/٤، رقم (٧٩٤٨).

(٢) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، الشخان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وولدهما برواية البلاذري في أنساب الأشراف، تحقيق إحسان صدقي العمدة، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ١٨٨-١٨٩.

(٣) أحمد بن زهير بن حرب، أخبار المكيين، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

والأمصار الإسلامية الأخرى. لكونها حديثة عهد بالإسلام ولكون قریش أنزل القرآن بلغتها.

(ب) علم الأدب والشعر:

كان أبرع الشعراء بمكة عبد الله بن الزبيري بن قيس بن عدي، وأبو طالب بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية، وضرار بن الخطاب، وأبو عزة الجمحي، وعبد الله بن حذافة السهمي الممزق، وهبيرة بن أبي وهب بن عامر^(١).

وكان أهل الحجاز يتذوقون الشعر، حتى وصل بهم المقام التفضيل بين الشعراء، فتجدهم مثلاً يفضلون النابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى عن بقية الشعراء^(٢).

وإن كان هناك أحد من علماء الصحابة يتميز في علاقته بالأدب والشعر عن كل من سواه فهو لابد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، يقول عمرو بن دينار: «ما رأيت مجلساً أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس: الحلال والحرام، وتفسير القرآن والعربية والشعر والطعام»^(٣). ويقول عطاء: «ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس أكثر فقهاً وأعظم خشيةً، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من

(١) محمد بن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دراسة طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ٩٢.

(٢) للاستزادة أنظر: عبد الله بن مسلم الدينوري، الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء، حققه وضبط نصح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ٦١.

(٣) إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ٢٠٣/٨.

واد واسع»^(١). فابن عباس قد شهد له معاصروه من الصحابة والتابعين لعلمه بالشعر، ولاهتمامه وعنايته به كان يجعل له يوماً بذاته ولا يذكر فيه علم آخر غيره، وما جلس إليه عالم قط إلا خضع له، ولا سأل سائل إلا وجد عنده علماً^(٢).

واستطاع ابن عباس أن يربط علوم العربية من الشعر وغيره ووظيفها في خدمة تفسير القرآن الكريم، حدث سعيد بن جبير ويوسف بن مهران أن ابن عباس كان يسأل عن القرآن كثيراً فيقول: هو كذا وكذا أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا^(٣).

وكان إذا سئل عن شيء من العربية في القرآن يتكلم بالشعر كذلك^(٤). ولم يكن يربط الشعر بالتفسير فحسب، بل كان يجعل من الشعر مرجعاً مهماً، له مصداقيته في التاريخ وغيره، ومن ذلك أن الشعبي يقول «سألت ابن عباس: أي الناس كان أول إسلاماً؟ قال: أبو بكر الصديق ألم تسمع قول حسان:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة	فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية اتقاهم وأعدلها	إلا النبي، وأوفاهم بما حملا
والثاني التالي محمود مشهده	وأول الناس منهم صدق الرسل ^(٥)

(١) المرجع السابق، ٣٠١/٨.

(٢) المرجع السابق، ٣٠١/٨.

(٣) محمد بن سعد الزهري، الطبقات الكبرى، (الطبقة الخامسة من الصحابة)، تحقيق محمد صامل النلمي، مرجع سابق، ١/١٦٣.

(٤) المرجع السابق، ١/١٦١.

(٥) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص ٣٣.

واستطاع ابن عباس أن يقرب العلم بأبيات من الشعر، لأن العرب تميزوا بحافظة قوية، حيث تطرق لبعض الاعتقاد وبسطها في أبيات من الشعر، ففي رواية أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم أبياتاً لأمية بن أبي الصلت يذكر فيها حملة العرش وهي:

رحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مُرصد
والشمس تطلع كل آخر ليلة فجراً ويصبح لونها يتوقد
تبدو فما تبدو لهم في وقتها إلا معذبة وإلا تجلدد

فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم كالصدق له^(١).

وهكذا يتبين أن الشعر عند ابن عباس قد لجأ إليه في علوم ومعارف مختلفة ومتنوعة، لذا يقول عبد الله بن عتبة: أخذت القصيدة من في ابن عباس ينشدناها ثلاثين بيتاً^(٢).

(ج) علم الخط والكتابة:

نشأ الخط العربي منذ القدم في مكة، فعن ابن شهاب قال: أول من أدخل الكتاب العربي بمكة: عمرو بن العاص - رضي الله عنه - جاء به من الحيرة^(٣)، وعن الشعبي قال: سألنا المهاجرين: من أين تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الحيرة، فسألنا أهل الحيرة، من أين تعلمتم؟ قالوا: من أهل الأنبار. وقال غيره: فسألنا أهل الأنبار: من أين تعلمتم؟ قالوا: نزل عليا رجلاً من طيء يقال لأحدهما: مرار بن مروة، وللآخر: عامر بن سدره، فأخذنا ذلك

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، مرجع سابق، ٢٧٧/٥.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق السلمي، مرجع سابق، ١٦٢/١.

(٣) الفاكهي، مرجع سابق، ٢١٤/٣.

منهما^(١). واستقر الخط النبطي عند أهل مكة، يقول صلاح الدين المنجد: «فكان من الطبيعي أن يأخذ عرب الحجاز الخط النبطي ويطوره ذلك لأن الأنباط كانوا أكثر حضارة من عرب الحجاز فأثروا في هؤلاء، واقتبس عرب الحجاز خطهم من أولئك نظرًا للاتصال المباشر بهم أثناء رحلاتهم الدائمة المتواصلة إلى الشام، فقد كانوا يمرون دائمًا على ديارهم، ولم يكن للشام طريق أخرى توصلهم إليها، فهذا الاتصال الحضاري الدائم بين عرب الحجاز وعرب الأنباط كان أكبر مساعد على أخذ عرب الحجاز خطهم من الأنباط»^(٢).

وبقي هذا العلم في مكة راسخًا، واستفاد النبي صلى الله عليه وسلم من أهل مكة ومن ثم الخلفاء الراشدين.

(د) القصص:

كما يتبين مما سبق، أن عبيد الله بن عمير هو قاص بمكة، وبدأ قصصه في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٣).

والقصص هدفها وعظي، فقد كان رضي الله عنه يعظ الناي حتى أن عائشة رضي الله عنها قالت له ناصحة: «خفف على الناس القصص ولا تملهم فيملوا»^(٤).

لذا فقد جاء في لسان العرب أن القاص: هو الذي يأتي بالقصة على

(١) المرجع السابق، ٢١٤/٣.

(٢) صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م، ص ١٩.

(٣) أحمد بن زهير بن حرب، أخبار المكيين، ص ٢٥٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٤٨.

وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها. وفي الحديث: لا يقص إلا الأمير أو مأمور أو محتال، أي لا ينبغي ذلك إلا للأمير يعظ الناس ويخبرهم بما مضى ليعتبروا... وقيل أراد الخطبة لأن الأمراء كانوا يلونها في الأول ويعظون الناس فيها ويقصون عليهم أخبار الأمم السالفة^(١).

ثانيًا: العلوم الاجتماعية:

* علم الجغرافيا:

«وتفرع من علم التاريخ علم الأخبار أو ما يسمى في عصرنا الحالي بعلم الجغرافيا»^(٢)، وهي من العلوم الاجتماعية التي كان لها عناية في العهد الراشدي، حيث كانت ممارسات تدل دلالة واضحة على تأسيس علم الجغرافيا، ومن ذلك ما عنوانه الكتاني في كتابه «باب في اعتقاد قواد الصحابة برفع التقارير الجغرافية للخلفاء الراشدين عن البلاد التي يفتحونها، وقال: ومن أمثلة تلك التقارير أن عمرو بن العاص لما أتم فتح مصر أرسل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كتابًا يصف له فيه مصر وشرح له السياسة التي سيتخذها فيها ونصه: مصر تربة غبراء (سهلة الإنبات)، وشجرة خضراء، (كثيرة الشجر الأخضر) طولها شهر وعرضها عشر...»^(٣)، وكان من أسباب جذوه الاهتمام بهذا العلم «أن الخلفاء في صدر الإسلام أمروا أمراء جيوشهم وعمالهم أن يرسم كل منهم خطط البلاد التي

(١) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ١٢/١٢٠ مادة (قصص).

(٢) منى علي السالوس، الجهود العلمية والتعليمية في عصر الخلفاء الراشدين، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ص ٢٢٤.

(٣) عبد الحي الكتاني، نظام الحكومة النبوية - مرجع سابق، ٢/٢٦٦.

افتتحها واستولى عليها»^(١)، ثم اضطرت - بعد الفتح الإسلامي - بوقت وجيز شؤون الإدارة والأحكام إلى تكليف العمال والموظفين بالتقارير الجغرافية عن الأمصار والأقاليم التي قد كان فتحها المسلمون»^(٢)، ويشهد لهذا ما جاء في أخبار الفتوحات الإسلامية، فنجد أن عتبة بن غزوان لما نزل الخريبة في سنة ١٤ هـ «كتب إلى عمر، ووصف له مترله»^(٣)، وكتب سعد بن أبي وقاص واصفاً الكوفة: «إني قد نزلت بكوفة مترلاً بين الحيرة والفرات برياً وبحرياً، ينبت الحلي والنصي...»^(٤)، وجاء في كتاب عمرو بن العاص جواب كتاب عمر في الاستغاثة: «إن البحر الشامي حفر لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حفيراً، فصب في بحر العرب، فسد الروم والقبط، إن أحببت أن يقوم سعر الطعام بالمدينة كسعره بمصر، حفرت له نهراً أو بنيت له قناطر فكتب إليه عمر: أن أفعل وعجل بذلك»^(٥).

أشارت النصوص إلى اهتمام الصحابة بتدوين الوصف الجغرافي وكتابة التقارير الجغرافية للخلفاء الراشدين، وهذا مما أسس نواة علم الجغرافيا.. والناظر إلى قواد المسلمين نجد أكثرهم إن لم يكن كلهم من المجتمع المكي، وهذا يعطي دلالة واضحة أن أهل مكة لديهم من الدراية والعلم والخبرة في علوم الجغرافيا، ومما يؤكد ذلك أن مشاهير الصحابة بمكة الذين كانوا قد استوطنوها قد خرجوا فيها بسبب الأسفار والغزوات والتجارات كان لهم أثر

(١) المرجع السابق، ٢/٢٦٦.

(٢) المرجع السابق، ٢/٢٥٢.

(٣) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، مرجع سابق، ٢/٤٣٩.

(٤) المرجع السابق، ٢/٤٧٩.

(٥) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، مرجع سابق، ص ١٦٦.

واضح في إثراء الفتوحات جغرافيًا ومن أمثلهم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص وكرز بن علقمة رضي الله عنهم أجمعين، ومن ذلك ما كتبه معاوية بن أبي سفيان إلى عامله على مكة: «إن كان كرز بن علقمة حيًا فمره فليوقفكم على معالم الحرم، ففعل وهي معالمه إلى الساعة»^(١).

رابعاً: العلوم الفلكية والحسابية:

(أ) علم النجوم (الفلك):

من العلوم التي اشتهر بها العرب قاطبة علم النجوم، وبقي هذا العلم يتوارث إلى أن جاء الإسلام، وحث إلى تعلم علم النجوم (الفلك) لما يترتب عليها بعض الأحكام الشرعية مثل دخول الشهر وغيره، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

قال الإمام الشوكاني: «فيه بيان وجه الحكمة في زيادة الهلال ونقصانه، وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التي يوقت الناس عباداتهم ومعاملاتهم بها كالصوم والفطر والحج ومدة الحمل والعدة والإجازات والإيمان وغير ذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْجِسَابِ﴾^(٢)، وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير عن قتادة قال: سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الأهلة لم جعلت؟ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ الآية، فجعلها لصوم المسلمين

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٣١٥/٥.

(٢) محمد بن علي الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، دار الخير، دمشق، سوريا، ١٤١٢هـ --

ولإفطارهم ولمناسكهم وحجهم وعدد نسائهم وكل دينهم»^(١)، وقد ذكر بعض أهل العلم أن علم النجوم (الفلك) من فروض الكفاية وقيل أنه من الفروض العينية، لأنه به تعرف أوقات الصلوات وهو علن التيسير لا علم التأثير^(٢). وأورد البيهقي في شعب الإيمان حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تعلموا من أسمائكم ما تصلون به أرحامكم ثم انتهوا وتعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلماته البر والبحر ثم انتهوا»^(٣)، وقال صاحب الهداية من أئمة الحنفية في كتابه مختارات النوازل وأما علم النجوم فهو في نفسه حسن غير مذموم وهو قسمان حسابي وأنه حق نطق به القرآن قال تعالى ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي سيرهما بحساب، واستدلال بسير النجوم وحركات الأفلاك على الحوادث بقضاء الله وقدره وهو جائز كاستدلال الطبيب بالقبض على الصحة والمرض وهو يعتقد بقضاء الله وإن ادعى علم الغيب بنفسه كفر»^(٤)، إذن من تعلم الفلك والنجوم له مكانته الشرعية وهو علم من علوم التي تفتخر به الأمم والحضارات الأخرى، حين يصف ابن كثير رستم أثناء حديثه عن معركة القادسية «ولما عنده من علم النجوم الذي يعتقد صمته في نفسه لما له من الممارسة لهذا الفن..»^(٥)، وإذا كان كذلك، فلا يعقل - في رأي الباحث - أن يكون أهل مكة بمنأى عن هذا العلم وهم ملتقى الحضارات

(١) المرجع السابق ٢٠٨/١.

(٢) الكتاني، التراتيب الإدارية، مرجع سابق، ٣١٣/٢.

(٣) أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٠-١٩٩٠م، ٢/٢٦٨ رقم (١٧٢٣).

(٤) الكتاني، التراتيب الإدارية، مرجع سابق، ٣١٣/٢-٣١٤.

(٥) إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ٣٨/٧.

ولهم من تراثهم الثقافي والحضاري ما يجعل لهذا العلم أسسه فيهم أو في بعض أفرادهم.

(ب) علم الحساب والإحصاء:

علم الحساب له صلته الوثيقة ببعض العلوم التشريعية كعلم الفرائض وفقه العبادات وخاصة في فريضة الزكاة، وله صلته أيضاً بأحكام الجهاد من حساب الغنائم والفِيء والجزية، ومن حساب العدو والعتاد وتقدير المقادير وغيرها... وإذا كان كذلك فلا بد أن ينبري لهذا العلم رجاله، وأن يكون مجموعة من الصاحب الكرام لهم ممارسة له من خلال الوقائع، كيف لا وقد ذكرت النصوص الشرعية ذلك ﴿تَعَلَّمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

يقول الإمام الشوكاني: «والفرق بين العدد والحساب أن العدد إحصاء ماله كمية يتكرر أمثاله من غير أن يتحصل منه حد معين منه له اسم خاص؛ فالسنة مثلاً إن وقع النظر إليها من حيث عدد أيامها فذلك هو العدد؛ وإن وقع النظر إليها من حيث تحققها وتحصلها من عدة أشهر، قد يحصل كل شهر من عدة أشهر أيام، قد يحصل كل يوم من عدة ساعات، قد حصلت كل ساعة من عدة دقائق هو الحساب...»^(١)، ويشهد على ذلك ما رواه ابن الأثيري عن نافع العبيسي: دخلت حَيَّرَ الصدقة مع عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، قال: فجلس عثمان في الظل يكتب، وعلي على رأسه يملّ عليه ما يقول عمر، وعمر قائم في الشمس في يوم شديد الحر عليه بردان أسودان، قد اتزر بأحدهما ولف الآخر على

(١) محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، مرجع سابق، ٢٤١/٣.

رأسه، يَعدُّ إيل الصدقة ويكتب ألوانها وأسنانها، فقال علي لعثمان في كتاب الله: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا لَبِثَ اسْتَأْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

ثم أشار علي بيده إلى عمر فقال: «هذا القوي الأمين»^(١)، وهذا الأثر رد واضح على من قال أن الصحابة لم يكونوا متبحرين في دقائق علم الحساب حيث قال شهاب الدين وهذا خلاف معلوم لأهل الاطلاع على أحوال الصحابة»^(٢).

وممن اشتهر بعلم الحساب علي رضي الله عنه لتمكنه في القضاء: وذلك أن رجلين كان مع أحدهما خمسة أرغفة ومع الآخر ثلاثة فجلسا يأكلان فجلس معهما ثالث يأكل معهما ثم بعد الفراغ من الأكل دفع لهما الذي أكل معهما ثمانية دراهم وقال اقتسما هذه الدراهم على قدر ما أكلت لكما فقال صاحب الثلاثة إنه أكل نصف أكلة من أرغفتي ونصف أكلة من أرغفتك، فأعطني النصف أربعة دراهم، فقال له الآخر إلا ثلاثة دراهم فحلف صاحب الثلاثة لا يأخذ إلا ما حكم به الشرع، فترافعا إلى علي فحكم لصاحب الثلاثة بدرهم واحد، ولصاحب الخمسة سبعة دراهم، فتكر من ذلك صاحب الثلاثة، فقال له علي: الأرغفة ثمانية وأنتم ثلاثة، أكل كل واحد منكم ثلاثة أرغفة إلا ثلاثاً بقي لك ثلث من أرغفتك أكله صاحب الدراهم وأكل صاحبك من أرغفته ثلاثاً إلا ثلاثاً وهي خمسة يبقى له رغيفان وثلث، وذلك سبعة أثلاث أكلها

(١) علي بن محمد الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، مرجع سابق، ص ٥٥٣.

(٢) الكتاني، التزاتيبي الإدارية، مرجع سابق، ٣١٠/٢.

صاحب الدراهم»^(١)، ولم يكن علي بن أبي طالب بمفرده في هذا العلم فقد دعى النبي صلى الله عليه وسلم لمعاوية بن أبي سفيان فقال: «اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب»^(٢)، ولم يكتف الصحابة رضوان الله عليهم تعلم الحساب، بل أولو علم الإحصاء اهتماماً من خلال تدوين الدواوين، وإن كان مصطلح «الإحصاء» حادثاً كعلم من العلوم إلا أنه كانت له ممارسات في العهد النبوي حيث ثبت من صحيح الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بكتابة الناس، وأنهم كتبوا في عصره صلى الله عليه وسلم، وأنه كان صلى الله عليه وسلم يقسم الفيء، وأن أبا بكر كان يعطي الناس الأعطيات، وتأكدت الحاجة إلى ضبط الناس، فوضع عمر بن الخطاب الديوان بعد مشاورته للصحابة رضي الله عنهم^(٣).

من خلال ما سبق يتضح أن هذا العلم، عرفه الصحابة، وأتقنه بعضهم، لكن لم يقف الباحث على آثار توضح رسوخ العلم عند أهل مكة سواء في علم الحساب أو الإحصاء، إلا أن المستقرئ للسيرة النبوية وتاريخ الخلافة الراشدة، يستبطن أن هذا العلم ليس بمنأى عن أهل مكة، لكون مكة ملتقى الحضارات والثقافات المختلفة، ولكون الخلفاء الراشدين ومعاوية وغيرهم جذورهم من مكة بلد الله الحرام، والله أعلم.

خامساً: علم الطب:

الطبيب: «هو الذي يفرق ما يضر بالإنسان جمعه، أو يجمع فيه ما

(١) الكتاني، التراتيب الإدارية، مرجع سابق، ٣١١/٢.

(٢) أحمد بن علي بن حجر، إنباء في تمييز الصحابة، مرجع سابق، ١٩٣/٢.

(٣) علي الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، مرجع سابق، ص ٢٤٨.

يضره تفرقه، أو ينقص منه ما يضره زيادته، أو يزيد فيه ما يضره نقصه، فيجلب الصحة المفقودة، أو يحفظها بالشكل والشبه، ويدفع العلة الموجودة بالضد والنقيض، ويخرجها، أو يدفعها بما يمنع من حصولها بالحمية...»^(١)، وقد كان من هديه صلى الله عليه وسلم فعل التداوي في نفسه، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه^(٢). بل قد أرشد على بعض الأعمال يقوم بها المرء وهو ما يسمى اليوم بالطب الوقائي، حيث قال عليه الصلاة والسلام: «ما ملأ آدمي شراً من بطن بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فتلت لطعامه وتلت لنفسه»^(٣)، وقد حث عليه الصلاة والسلام بالتداوي وأرشد على بعض الأدوية والعلاجات فقال «الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي» يقول الإمام ابن حجر: «وأما الكي فإنما يستعمل في الخلط الباغي الذي لا تنحسم مادته إلا به، ولهذا وصفه النبي صلى الله عليه وسلم ثم نهى عنه، وإنما كرهه لما فيه من الألم الشديد والخطر العظيم، ولهذا كانت العرب تقول في أمثالها «آخر الدواء الكي» وقد كوى النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ وغيره، واكتوى غير واحد من الصحابة»^(٤). وقد كانت توجيهات الرسول

(١) محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ١٣، ١٤٠٦ هـ.

- ١٩٨٦ م، ٩/٤ - ١٠.

(٢) المرجع السابق، ١٠/٤.

(٣) محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الصحيح، مرجع سابق، ٥٩٠/٤، رقم (٢٣٨٠).

(٤) أحمد بن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، مرجع سابق،

١٠/١٧٧، رقم (٥٦٨١) باب الشفاء في ثلاث، كتاب الطب.

صلى الله عليه وسلم في الطب ذات أثر فعال في دفع المسلمين فيما بعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تعلم الطب^(١)، ومن ذلك ما روي عن معقب بن أبي فاطمة الأزدي وكان خازناً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وكاتباً قد أصابه الجذام، فدعا له عمر. الحارث بن كلدة الثقفي وقال له: عالجه، قال: يا أمير المؤمنين أما أن يبرأ فلا، ولكني أدأويه حتى يقف مرضه فلا يزيد، قال عمر: فذاك فكان يأمر بالحنظل الرطب فيدلك به قدميه ولا يزيد على ذلك، فوقف مرضه حتى مات^(٢).

والحارث بن كلدة كان قد تعلم الطب بناحية فارس واليمن وتمرن هنالك وعرف الدواء.. وبقي أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان.. وروي أن معاوية قال له: ما الطب يا حارث؟ فقال: الأزم يا أمير المؤمنين، يعني الجوع^(٣)، وفي وفاة عمر رضي الله عنه: «حضر الحارث حين جرح عمر فقال: أسقوه لبناً، فإن خرج من جرحه فهو هالك فخرج اللبن من الجرح، فدل على أن معاه معقور، فقال له: اعهده ههنا، فليست بألبث من أهل القبور..»^(٤)، وكان ابن أبي رقعة طبيباً على عهد رسول الله صلى الله عليه

(١) عبد العزيز بن إبراهيم العمري، الحرف والصناعات في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، جامعة أم القرى، ١٤٠٥-١٩٨٥م، ص ٢٨٥.

(٢) علي الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، مرجع سابق، ص ٦٧١.

(٣) سليمان بن حسان الأندلسي (ابن جليل)، طبقات الأطباء والحكماء تحقيق فؤاد سيد، وطبعة دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - مصر، طبعة مصورة عن طبعة

القاهرة ١٩٥٥م، ص ٥٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٥٤.

وسلم، عالمًا بصناعة اليد - أي مزاولاً لأعمال اليد وصناعة الجراح، وقد عرفت عائشة رضي الله عنها بالطب، كيف لا وهي ممن لازم النبي صلى الله عليه وسلم، يقول هشام بن عروة عن أبيه «ما رأيت أحداً أعلم بفقهِ ولا بطب ولا بشعر من عائشة»^(١). وقال عروة لعائشة رضي الله عنها: يا أمتاه لا أعجب من علمك بالشعر وأنت ابنة أبي بكر وكان أعلم الناس ولاكن أعجب من علمك بالطب فضربتَه على منكبيه وقالت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم عند آخر عمره فكانت تقدم إليه وفود العرب من كل وجه فينعت لهم الأنعات فكانت أعالجه فمن ثم»^(٢).

وقد شارك النساء الرجال في التطبيب تقول ربيع بنت معوذ بن عفراء «كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نقي القوم وتخدمهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة»^(٣)، وعن أم جميلة أنها دخلت على عائشة فقالت لها إني امرأة أدوي من الكلف من الوجه، وقد تألمت منه، فأردت تركه فما تأمريني، فقالت لها عائشة لقد كنا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لو أن إحدانا كانت إحدى عينيها أحسن من الأخرى ففعل لها أنزعها وحولها مكان

(١) الكتابي، التراتيب الإدارية، ٤٥٥/١.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٥٥/١.

(٣) يعلق ابن حجر على الحديث فيقول: «ويؤخذ - من الحديث - حكم مداواة الرجل المرأة منه بالقياس» وإنما لم يجزم بالحكم لاحتمال أن يكون ذلك قبل الحجاب، أو كانت المرأة تصنع ذلك بمن يكون زوجاً لها أو محرماً، وأما حكم المسألة فتجوز مداواة الأجانب عند الضرورة وتقدر بقدرها فيما يتعلق بالنظر والجس باليد وغير ذلك، انظر فتح الباري ١٠/١٦٩.

الأخرى وانزعي الأخرى فحولها مكانها، ثم ظنيت أن ذلك يسوغ لها ما راينا به بأساً فإذا زاولت فزوالها وهي لا تصلح... (١).

ومما يدل على اهتمام الصحابة بالطب والعلاج في العهد الراشدي أن رجلاً كان به وجع فنعت له الناس الحقنة، فسأل عمر بن الخطاب عنه فزجره فلما غلبه الوجع احتقن فبريء من وجعه ذلك فرآه عمر، فسأله عن برئه فقال: احتقنت، فقال عمر: إن عاد لك فعد لها يعني احتقن» (٢).

ولم يكن الطبيب والعلاج فقد في الأدوية وإنما كان كذلك في الرقية، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفاه جبريل عليه السلام قال: بسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد شر كلاً ذي عين» (٣)، وفي رواية «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك بسم الله أرقيك» (٤).

وهكذا كان الطب في العهد النبوي والراشدي، حيث اشتهر فيه أفراد مخصصون لذلك فتطور حسبما تدعو إليه الحاجة، وخصوصاً عندما فتحت البلاد الإسلامية ثم الاحتكاك الحضاري بالأمم الأخرى.

(١) الكتابي، الترتيب الإداري، مرجع سابق، ١/٤٦٣-٤٦٤.

(٢) المرجع السابق، ٤٦٣.

(٣) مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، رقم (٢١٨٥)

٤١٩/١٤.

(٤) المرجع السابق، رقم (٢١٨٦) ١٤/٤٢٠.

سادساً: علوم الحرف والصناعات:

زخر المجتمع المكي بالحرف الإنتاجية والمهن المتنوعة ومن ذلك: الدباغة: كان بعض أشرف مكة رجالاً ونساء يعملون في دباغة الجلود حيث تذكر الروايات أن أبا سفيان^(١)، وزوجه هند بنت عتبة^(٢)، وأم المؤمنين زينب بنت جحش^(٣)، عالجوا الدباغة. وقد ورد دار الدباغين بأسفل مكة^(٤).

الخرازة والحذاء: «خياطة الأدم وكل كتبة من الأدم: خرزة، على التشبيه بذلك، يعني كل ثقبه وخيطها»^(٥). وقد أشارت مصادر تاريخ مكة إلى وجود الحذائين في عدة مواضع، ومن ذلك ما أشار إليه الأزرقسي في رباع حلفاء بني زهرة حيث قال: «وللغسانيين أيضاً الدار التي تصل دار أوس ودار عيسى بن علي فيها الحذاءون»^(٦).

الحدادون: ذكر ابن قتيبة أن العاص بن هشام كان حداداً وكذلك الوليد

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق عبد العزيز السلومي، رسالة دكتوراة،

(غير منشورة) جامعة أم القرى، قسم الحضارة والنظم الإسلامية، مكة المكرمة،

١٤١٠ - ١٩٨٩م، ص ١٥٦.

(٢) المرجع السابق، ١٥٦.

(٣) محمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ٢/٢١٧.

(٤) الفاكهي، مرجع سابق، ٣/٣٤٢.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ٥/٤٣.

(٦) للاستزادة انظر الأزرقسي: ٢/٧٥، ٩٨، ١٤٦، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥٥، وانظر:

الفاكهي: ٢/١٦٦، ٢٠٣، ٢٠٩.

بن المغيرة^(١). وكان لهم سوقاً معروفة، فدار الحدادين توجد في سوق الليل مقابل وق الفاكهة^(٢).

النجارون: حيث كان سعد بن أبي وقاص يبني النبل، وكان عتبة بن أبي وقاص نجاراً^(٣)، بل جاءت المصادر وأثبتت وجود سوق للنجارين^(٤).

الخطاطون: والخطاطة من المهن التي احترفها أهل مكة، فمن الذين يجيدون الخطاطة عثمان بن طلحة وقيس بن مخرمة^(٥)، وكان في سوق الحزورة باب يسمى (باب الخطاطين)^(٦).

الغزالون: ذكر الأزرقى: أن دار المليكين عند الغزالين^(٧)، وهذا يؤكد أن هذه الحرفة كان لها وجود في مكة.

الصباغة: روت أم حمادة بنت محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن عمته قالت: كانت أم ليلى تصنع لها درعها وخمارها وملحفها كل شهر..^(٨).

(١) ابن قتيبة - المعارف - مرجع سابق، ص ٣١٩.

(٢) الأزرقى، مرجع سابق، ٢/٢٣٩.

(٣) ابن قتيبة، المعارف، مرجع سابق، ٣١٩.

(٤) الأزرقى، مرجع سابق، ٢/٢٤٣، الفاكهي، مرجع سابق، ٣/٢٧٧، ٢٨٣.

(٥) ابن قتيبة، المعارف، مرجع سابق، ص ٣١٩.

(٦) الأزرقى، مرجع سابق، ٢/٩٢، ٩٦، الفاكهي: ٢/١٩٥، ٢٠٣، ٢٠٧.

(٧) الأزرقى، مرجع سابق، ٢٠/٢٥٧.

(٨) ابن الأثير، أسد الغابة، مرجع سابق، ٧/٢٥٩.

صناعة الأوتاي: ومنهم البرامون وهي من البرمة وتعني اقدر^(١). وقد وصف الأزرقى أماكنهم في مكة «وجه الربع - ربع آل اثمار القاريين - بين الدارين مما يلي البرامين»^(٢). وكان أمية بن خلف يبيع البرم^(٣).

صناعة الحبال: عادة ما يخاطب القرآن المجتمع المكي من واقع بيئتهم حيث أنزل الله عز وجل سورة المسد من ضمن السور المكية التي كانت قريبة من واقع مشركي قريش، فذكر الله عز وجل في وصف امرأة أبي لهب - أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان -: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥].

والمسد هو الحبل الذي يكون من صوف وقال الحسن: وقال الحسن: هي حبال تكون من شجر ينبت باليمن تسمى بالمسد^(٤). وقال ابن سيد: المسد حبل من ليف أو خوص أو شعر أو وبر أو صوف أو جلود الإبل أو جلود أو من أي شيء كان^(٥). ويمكن أن نستنبط من الآية أن المجتمع المكي يوجد به صناعة للحبال، حيث أن صناعة الحبال كانت من الصناعات الموجودة بكثرة

(١) محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق حمزة فتح الله، ترتيب محمود خاطر، دار البصائر، دمشق، سوريا، مؤسسة الرسالة - بيروت، لبنان مكتبة طيبة - المدينة النبوية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ٥٠.

(٢) الأزرقى، مرجع سابق، ٢/٢٥٥، الفاكهي، مرجع سابق، ٣/٣١٧، ٣١٩.

(٣) ابن قتيبة، المعارف، مرجع سابق، ص ٣١٩.

(٤) ابن قتيبة، المعارف، مرجع سابق، ص ٣١٩.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ١٤/٧١ مادة (مسد).

في الحجاز سواءً عند البادية أو الحاضرة، ولم يكن يستغنى عنها في الحل والسفر^(١).

الزراعة: كان المجتمع المكي له عناية بالزراعة، وقد ثبت أنهم كانوا يزرعون البقل، فقد روى الواقدي أن ابن عمر كان يأكل بقلًا زرع في الحرم^(٢)، واستمرت هذه الزراعة إلى زمن الدولة الأموية، فعن معاذ بن محمد قال: «رأيت على مائدة الزهري بقلًا من الحرم»^(٣).

الرعي: يشكل رعي الإبل والغنم من الموارد الاقتصادية لأهل مكة، حيث كانت فئة منهم تشتغل بها، وقد ورد أن عبد المطلب كان يملك أكثر من مائتي بعير^(٤)، وعندما ظهر الإسلام وخاصة بعد فتح مكة وزع رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم غزوة حنين من الإبل وغيرها على بعض زعماء قريش ليؤلف قلوبهم ومنهم أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وغيرهم^(٥).

وأخبر عليه الصلاة والسلام أنه قد رعى الغنم في مكة على قراريط من أهلها «ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم، فقال أصحابه وأنت؟ فقال: نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»^(٦).

(١) عبد العزيز بن إبراهيم العمري، مرجع سابق، ص ٣٣٥.

(٢) أحمد البلانري، فتوح البلدان، مرجع سابق، ص ٥٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ٧١/١٤ مادة (مسد).

(٥) للاستزادة انظر: محمد بن عمر الواقدي، المغازي، تحقيق مارسدن جونس، عالم

الكتب، بيروت، لبنان، ط ٣ ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ٩٤٥/٣ - ٩٤٥.

(٦) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح المختصر، مرجع سابق، ٧٨٩/٢، رقم

(٢١٤٣)، كتاب الإجازة، باب رعي الغنم على قراريط.

فالمجتمع المكي من المجتمعات التي تعطي الرعي اهتماماً فائقاً، لكونه من مقاييس الثراء والجاه، لذا حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تأليف قلوب زعماء قريش وأشرافهم.

وفي بداية العهد الراشدي وعند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم هاج أهل مكة عند الذي بلغهم من وفاته عليه الصلاة والسلام فقام سهيل بن عمرو خطيباً فقال: «أيها الناس إن يكن محمد قد مات فإن الله حي لم يمست وقد علمتم أنني أكثركم قَتَباً^(*) في بر وجارية في بحر...»^(١). وهذا يعني أن مهنة الرعي لم تزل قائمة في مكة ومما يؤكد ذلك ما أورده ابن الأثير عن يعلى بن أمية أنه عندما بلغه قتل عثمان رضي الله عنه، وأقبل لينصره، وقال من خرج يطلب بدم عثمان فعليّ جهازه، فأعان الزبير بأربعمائة ألف بغير^(٢).

ويذكر أيضاً أن حكيم بن حزام قد أهدى في موسم الحج مائة بدنة وألف شاة^(٣)، ولم يكتف أهل مكة بالرعي فقط بل جعلوا لها سوقاً ومنها على سبيل المثال السوق الكائن بقديد^(٤)، وسوق الظهر، وسوق الإبل في داخل مكة^(٥).

(*) المقصود أكثركم إيلاً، انظر ابن منظور، لسان العرب، ١٩/١٢ مادة (قَتَب).

(١) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق المحامي فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م، ١/١٦٧.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، مرجع سابق، ٥/٥٢٣.

(٣) محمد بن سعد، الطبقات، تحقيق السلومي، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

(٤) محمد بن سعد، الطبقات، تحقيق السلومي، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

(٥) الفاكهي، مرجع سابق، ٣/٢٨٩.

الجزارون: ذكر ابن قتيبة أن نفرًا من رجال قریش كانوا حذاريين وهم: أسيد بن أبي الغيص، والزبير بن العوام، وعمر بن العاص، والعاص بن هشام، وعامر بن كريز، والوليد بن المغيرة، وعدي بن نوفل، وأبي الجهم العدوي^(١).

وللجزارين أماكن معروفة في مكة تسمى باسمهم^(٢). وكان موالي ابن عباس ينحرون الجزور ويطعمون الناس في مكة^(٣).

أعمال البناء: يبدو أن الموالي قاموا في مكة بأعمال البناء، حيث ذكر الأزرقى عددًا من الموالي الذين قاموا بهذه المهنة، وهم على سبيل المثال: زبيحًا مولى لآل ربيعة وزوزؤ مولى بني سهم، والدلمي مولى معاوية، ونفاعة مولاة معاوية^(٤).

وكان عمر بن الخطاب يحث على إصلاح البناء، فعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: كان عمر يقول على المنبر: يا أيها الناس أصلحوا عليكم مثاويكم وأخيفوا هذه الجنان قبل أن يخيفكم، فإنه لم يبدو لكن مسلموها، وإن الله ما سلمناهن منذ عاديئناهن^(٥).

(١) ابن قتيبة، المعارف، مرجع سابق، ص ٣١٩.

(٢) الفاكهي، مرجع سابق، ٢٩٠/٣.

(٣) أحمد بن يحيى البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٥٩م، ٧٩/٤.

(٤) للاستزادة انظر: الأزرقى: مرجع سابق، ٢٤٠/٢، ٢٧١، ٢٨١، ٢٨٥، ٢٩٥، الفاكهي: مرجع سابق، ٢١٠-٢١١/٤.

(٥) فضل الله الجيلاني، فضل الله الصمد في توضيح المفرد للإمام البخاري، قدم له واستوفى أحاديثه وفهارسه محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، مصر، ط ٣، ١٤٠٧هـ، ٥٣٤/١-٥٣٥، قال الشارح: مثاويكم: جمع مثوى: المترل، وأخيفوا هذه أي أجعلوها تخافكم وأحملوها على الخوف منكم، لأنها إذا رأتكم تقتلونها فرت منكم.

تأمين الخطب (الاحتطاب): وقد كان زنوج مكة يحتطبون من جبل بئير ويلعبون فيه^(١). وأورد ابن سعد أن عبد الرحمن بن خاطب عن أبيه قال: أقبلنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قافلين من مكة حتى إذا كنا بشعاب ضجنان وقف الناس فكان محمد يقول: مكاناً كثير الشجر والأشب، فقال: لقد رأيتني في هذا المكان وأنا في إيل للخطاب، وكان فظاً غليظاً، أحتطب عليها مرة وأحتبط عليها أخرى..^(٢).

وقد اعتبر ابن عباس الخطابين من أهل المنافع حيث قال: «لا يدخل مكة إنسان إلا الحمالين أو الخطابين، وأصحاب منافعنا، إلا وهو محرم»^(٣).

كتابة المصاحف: عن ابن جريج قال: قال عطاء: «لم يكن من مضى يبيعون المصاحف، إنما حدث ذلك الآن، إنما كانوا يحتسبون لمصاحفهم في الحجر فيقول أحدهم للرجل إذا كان كاتباً وهو يطوف إذا فرغت يا فلان، تعالى فاكتب لي، فيكتب الصفح وما كان من ذلك حتى يفرغ من مصحفه»^(٤).

سابعاً: العاملون بوظائف متنومة في دولة الخلافة الراشدة:

الكاتب: ومنها كتابة الدواوين، والكتابة للوالي، ولقد كان ابن أبزى أحد

(١) الأزرقي، مرجع سابق، ٢/٢٧٩.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، مرجع سابق، ٣/١٤٢.

(٣) الفاكهي، مرجع سابق، ٣/٧٥.

(٤) عبد الله بن سليمان أبو داود السجستاني، كتاب المصاحف، دراسة وتحقيق ونقد محب الدين عبد الله الشبحان واعظ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، باب الاحتساب، ٢/٤٥٥-٥٥٥، رقم (٦٠٩)، قال المحقق: اسناد وحسن.

هؤلاء الكتّاب - وهو مولى - وهو قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض^(١). وكذلك ابن عباد الكاتب مولى بني مخزوم حيث كان من كتاب الديوان^(٢).

المؤذن: «قال الواقدي: كان أبو محذورة، يؤذن مكة إلى أن توفي سنة تسع وخمسين، فبقي الأذان في ولده وولد وولده إلى اليوم بمكة»^(٣).

وهن الهذيل بن بلال قال: سمعت ابن أبي محذورة عن أبيه قال: جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لبني عبد المطلب السقاية ولبني عبد الدار الحجابة وجعل الأذان لنا ولموالينا^(٤). وهذا يعني أن الموالي كان لهم دوراً في الأذان.

هيئة الرقابة على الأسواق: استعمل النبي صلى الله عليه وسلم سعيد بن سعيد بن العاص يوم الفتح على سوق مكة. إلا أنه استشهد عند غزوة النبي صلى الله عليه وسلم للطائف^(٥). وكان سعيد بن مينا على سوق مكة من قبل ابن الزبير^(٦). وهذا يدل أن هذه الوظيفة كانت متعارف عليها، إلا أن الباحث لم يصل إلى الشخصية التي كانت مسؤولة على السوق في عهد الخلفاء الراشدين.

(١) الفاكهي، مرجع سابق، ١٦٥/٣.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، مرجع سابق، ١٨١/٦.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ١١٨/٣.

(٤) سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، العراق، ط ٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م،

١٧٥/٧، رقم (٦٧٣٧).

(٥) ابن الأثير، أسد الغابة، مرجع سابق، ٣٩٠/٢.

(٦) الأزرق، مرجع سابق، ٢١٥/١.

المنفذون للحدود: أول من جلد الحدود بمكة عبيد الله بن أبي مليكة، استعمله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على إقامة الحدود^(١). وعن ابن جريح، قال: سمعت عبد الله بن أبي مليكة يقول: تبرز عمر - رضي الله عنه - في أجياد، فوجد سكراناً، فطرق به عبيد الله بن أبي مليكة، وكان جعله يقيم الحدود، وقال: إذا أصبحت فأجلده^(٢).

حجاب بيت الله العتيق: كما جاء في الحديث عن أبي محذورة: أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل لبني عبد الدار الحجابة^(٣)، «والحجابة تعني حجابة الكعبة وهي سدانتها، وتولي حفظها، وهم الذين بأيديهم مفاتيحها»^(٤).

والسادن: خادم الكعبة.. والجمع السدنة وقد سدن يسدُن بالضم وكانت السدانة واللواء لبني الدار.. وقال ابن بري: الفرق بين السادن والحاجب أن الحاجب يحجب وإذنه لغيره، والسادن يحجب وإذنه لنفسه.. وقال أبو عبيد: سدانة الكعبة خدمتها وتولي أمرها وفتح بابها وإغلاقه^(٥). فكانت مهام حجابة وسدنة بيت الله العتيق واضحة لهم، ولا يستطيع أحد أن يتنازعهم فيها.

يروى أبي وائل شقيق بن سلمة، قال: جلس إلي شيبه بن عثمان في المسجد الحرام، فقال: جلس إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مجلسك هذا، فقال: لقد هممت أن لا أترك فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها - يعني الكعبة - قال شيبه: فقلت له: إنه قد كان لك صاحبان لم يفعلاه،

(١) الفاكهي، مرجع سابق، ٢٠٢٠/٣.

(٢) المرجع السابق، ٢٣٣/٣.

(٣) سبق تخريجه، حاشية رقم ص.

(٤) ابن منظور، لسان العرب مرجع سابق، ٣٦/٤ مادة (حجب).

(٥) المرجع السابق، ١٥٧/٧، مادة (سدن).

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر - رضي الله عنه - فقال عمر: هما المرء إن اقتدي بهما^(١).

السقاية: اشتهرت قريش بالسقاية وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال العباس حين أسر يوم بدر: «لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونسقي الحاج^(٢). واستأذن - أي العباس - النبي صلى الله عليه وسلم أن يبيت بمكة ليالي منى من أج لسقايته، فأذن له^(٣).

فإذا كان هؤلاء السادة يقومون بسقاية الحجاج ويفتخرون بذلك العمل ويعتزون به، فلا يعني أن الغلمان كانوا بمنأى عن هذا العمل، حيث كانوا يؤمرون أن يستقوا من ماء زمزم في قرب، ثم يحملونها على رقابهم حتى يرش بها رمل الطواف فيلتبذ ويكن حره^(٤).

وكان غلام لبني الحجاج وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد عندما أتى بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء^(٥).

(١) الأزرقى، مرجع سابق، ٢٤٥/١-٢٤٦.

(٢) البغوي: تفسير البغوي - مرجع سابق - ٢١٠/٤-٢١١.

(٣) البخاري، مرجع سابق، ٥٨٩/٢، رقم (١٦٣٤)، كتاب الحج، باب سقاية الحج.

(٤) الفاكهي، مرجع سابق، ٣٣١/١-٣٣٢.

(٥) عبد الملك المعارفي، (ابن هشام)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى الساء، وآخرون،

دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، (د.ت). ١٦٣/٣.

خلاصة القول أن المجتمع المكي كان مجتمعاً حضارياً تتنوع فيه الحرف والصناعات وتتعدد فيه الوظائف والأعمال، وقد ساعد على هذه النقلة النوعية الحضارية بالمجتمع المكي كون مكة هي قبلة المسلمين وإليها تتجه الأفئدة، وتطمئن النفوس في زيارتها والمكث أو المجاورة بها.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،،،

• الخاتمة

تبين من البحث النتائج الآتية:

- ١- أن مكة منارة للعلم ومركز للعلماء في عصر الخلفاء الراشدين.
- ٢- أنه قد ساعد على مركزية مكة عوامل دينية وسياسية وثقافية واقتصادية وجغرافية وسكانية واجتماعية.
- ٣- أن مركز التعلم في مكة تنوعت بين كتاتيب ومساجد ومجالس الخلفاء والعلماء ومنازلهم.
- ٤- ضمت مراكز مكة كثيراً من المعلمين من الصحابة والتابعين.
- ٥- قدمت مراكز التعليم في مكة معظم العلوم الشرعية واللغوية والاجتماعية وعلوم الحساب والطب، والحرف والصناعات.
- ٦- عمل كثير من الناس في وظائف الكتابة، الأذان، الحسبة، إقامة الحدود، الحجابة، السقاية.

• المصادر والمراجع:

- ١- إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ٢- أحمد بن إسحاق اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، علق علي ووضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، توزيع مكتبة الباز، مكة المكرمة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ٣- أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ٤- أحمد بن الحسين البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة الباز، مكة المكرمة، السعودية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ٥- أحمد بن حنبل الشيباني، كتاب فضائل الصحابة، حققه وخرج أحاديثه وصي الله بن محمد عباس، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٦- أحمد بن حنبل الشيباني: مسند الإمام أحمد، مؤسسة قرطبة، القاهرة، مصر، (د.ت.).
- ٧- أحمد بن حنبل الشيباني: مسند الإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر، دار المعراج الدولية، الرياض، السعودية، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، مصر/ (د.ت.).
- ٨- أحمد بن زهير بن حرب (ابن أبي خيثمة)، أخبار المكيين من كتاب التاريخ الكبير لابن أبي خيثمة، تحقيق إسماعيل حسن حسين، دار الوطن، الرياض، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٩- أحمد السباعي، تاريخ مكة، مطابع الصفاء، ط٨، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٠- أحمد بن عبد الرحمن البناء، الفتح الرباني، ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني، دار الشهاب، القاهرة، مصر، (د.ت.).

١١- أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٢- أحمد بن عبد الله العجلي، تاريخ الثقات، بترتيب الحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق عبد المعطي قلجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

١٣- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٤- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، «تهذيب التهذيب»، ضبط ومراجعة صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٥- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، حقق بعض أجزاءه عبد العزيز بن باز، ورقم كتبها وأبوابها محمد فؤاد عبد الباقي، دار السلام، الرياض، السعودية، دار الفحاء، دمشق، سوريا، ط٣، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٦- أحمد بن علي الخطيب البغدادي، الجماع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق: محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- ١٧- أحمد بن علي الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث، تحقيق نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، لبنان، ١٣٩٥هـ.
- ١٨- أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تقييد العلم، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، ط٢، (د.ت).
- ١٩- أحمد بن علي بن شعيب النسائي، سنن النسائي، بشرح الشيخ الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط٤، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ٢٠- أحمد بن علي بن شعيب النسائي، سنن النسائي الكبرى، تحقيق: عبد الفقار سليمان البنداري، سيد كسروي حسين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ٢١- أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٢٢- أحمد بن مروان الدينوري، المجالسة وجواهر العلم، تحقيق مشهور حسن آل سلمان، جمعية التراث الإسلامية بالبحرين، دار ابن حزم، الرياض، السعودية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ٢٣- أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٢٤- أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- ٢٥- أحمد بن يحيى البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٥٩م.
- ٢٦- أحمد بن يحيى بن جابر الشخان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وولدهما برواية البلاذري في أنساب الأشراف، تحقيق إحسان صدقي العمدة، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- ٢٧- إسماعيل ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، دار أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٢٨- إسماعيل ابن كثير، السيرة النبوية، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- ٢٩- إسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد إبراهيم البنا وآخرون، دار الشعب، القاهرة، مصر، (د.ت.).
- ٣٠- أكرم ضياء العمري، عصر الخلافة الراشدة: مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ٣١- بكر بن عبد الله أبو زيد، طبقات النسابين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ٣٢- تقي الدين أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، مكتبة ابن تيمية لطباعة ونشر الكتب السلفي، القاهرة، مر، (د.ت.).
- ٣٣- تقي الدين أحمد بن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٨٠م، بيروت، لبنان، ص ٢٤.
- ٣٤- تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد الفقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- ٣٥- تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي، شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام، حقق أصوله وعلق حواشيه لجنة من كبار العلماء والأدباء، درا الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- ٣٦- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مراجعة: مصطفى القصاص، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٣٧- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، (د.ت)، ص ١٣٧.
- ٣٨- الحسن بن مسعود البغوي، تفسير البغوي «معالم التنزيل»، تحقيق: عثمان جمعة ضميرية وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ١٤٠٩هـ.
- ٣٩- حمد بن محمد الخطابي البستي، معالم السنن شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ٤٠- خليفة بن خياط، الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمري، درا طيبة، الرياض، السعودية، ط ٢، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ٤١- سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، العراق، ط ٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- ٤٢- سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، وتعليق كمال يوسف الحوت، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ت).

- ٤٣- سليمان بن حسان الأندلسي (ابن جلجل)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، طبقة دار الكتب والوثائق القديمة، القاهرة، مصر، طبعة مصورة عن طبعة القاهرة ١٩٥٥م.
- ٤٤- الشريف حاتم بن عارف العوني، المنهج المقترح لفهم المصطلح، دار الهجرة، الخبر، السعودية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ٤٥- صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجدي، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م.
- ٤٦- طاهر الجزائري، التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن، تحقيق عبد الفلاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا، ط٣، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ٤٧- عبد الحي الكتاني، نظام الحكومة النبوية المسمى الترايتب الإدارية، درا الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ت).
- ٤٨- عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي، كتاب فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: محمد الحجيرى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ٤٩- عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٥٠- عبد السلام المباركفوري، سيرة الإمام البخاري سيد الفقهاء وإمام المحدثين، نقله إلى العربية وعلق عليه الدكتور عبد العليم البستوي، مكتبة دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ١٤٢٢هـ.

- ٥١- عبد العزيز بن إبراهيم العُمري، الحرف والصناعات في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، جامعة أم القرى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٥٢- عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، سنن الدارمي، دار الكتب العلمية، (د.ت)، بيروت، لبنان.
- ٥٣- عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار: تحقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- ٥٤- عبد الله بن الزبير الحميدي، مسند الحميدي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مكتبة المتنبّي، القاهرة، (د.ت).
- ٥٥- عبد الله بن سليمان أبو داود السجستاني، كتاب المصاحب، دراسة وتحقيق ونقد محب الدين عبد الله السبحان واعظ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ٥٦- عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، سنن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي. دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ.
- ٥٧- عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء أو طبقات الشعراء، حققه وضبط نصه: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٥٨- عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المعارف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٥٩- عبد الملك الجويني، غياث الأمم في التباث الظلم، تحقيق: مصطفى حلمي، فؤاد عبد المنعم، دار الدعوة، الإسكندرية، مصر، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٦٠- عبد الملك المعافري، (ابن هشام)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، (د.ت.).

٦١- علم الدين السخاوي، جمال القراء وكمال الإقراء، تحقيق علي حسين النواب، مكتبة التراث بمكة المكرمة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٦٢- علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٦٣- علي بن أحمد بن حزم، الأحكام في أصول الأحكام، تحقيق أحمد شاكِر، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، (د.ت.)، (٨٧/٥-٨٨).

٦٤- علي بن الحسن بن هبة الله (ابن عساكر)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فصلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من واديها وأهلها، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٦٥- علي بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

٦٦- علي بن محمد الجزري (ابن الأثير)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: محمد إبراهيم البنا وآخرون، دار الشعب، القاهرة، مصر، (د.ت.).

٦٧- علي بن محمد الخزاعي، تخرّيج الدلالات السمعية على ساكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصناعات والعمالات الشرعية، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٦٨- علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الباي الحلبي، القاهرة، مصر، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

٦٩- عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق المحامي فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.

٧٠- غانم قدوري الحمد، رسم المصحف: دراسة لغوية وتاريخية، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٧١- فضل الله الجيلاني، فضل الله الصمد في توضيح المفرد للإمام البخاري، قدم له واستوفى أحاديثه وفهارسه محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، مصر، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٧٢- القاسم بن سلام، الأموال، تحقيق: محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٧٣- مالك بن أنس، الموطأ براوية أبي مصعب الزهري المدني، تحقيق: بشار عواد معروف ومحمود محمد خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٧٤- محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق حمزة فتح الله، ترتيب محمود خاطر، دار البصائر، دمشق، سوريا، مؤسسة الرسالة - بيروت، لبنان، مكتبة طيبة - المدينة النبوية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٧٥- محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١٣، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٧٦- محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت.).

٧٧- محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٧٨- محمد بن الأثير الجزري، جامع الصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، دار الفكر للطباعة والنشر، ط٢، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٧٩- محمد بن أحمد الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق طيار التي قولاج، مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي - استانبول - تركيا، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٨٠- محمد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير الأعلام (عهد الخلفاء الراشدين). دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- ٨١- محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الارنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٨، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ٨٢- محمد بن أحمد الذهبي، الأمصار ذوات الآثار، تحقيق قاسم علي سعد، دار البشائر الإسلامية، دمشق، سوريا، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٨٣- محمد بن أحمد الفرطبي، الجماع لأحكام القرآن، درا الفكر، عمان، الأردن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٨٤- محمد بن إدريس الشافعي، الأم، مطبعة كتاب الشعب، القاهرة، مصر، (د.ت).
- ٨٥- محمد بن إسحاق الفاكهي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ٨٦- محمد بن إسماعيل البخاري، الجماع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، الميامة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٧هـ - ١٩٨٧م، رقم (٢٨٨٢).
- ٨٧- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، روائع التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ت).
- ٨٨- محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري «جامع البيان في تأويل القرآن»، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢.
- ٨٩- محمد بن حبان البستي، مشاهير علماء الأمصار، تصحيح م/ فليشهمر، وطبعه لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م، القاهرة، مصر.

- ٩٠- محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلمين، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وتعليق محمد العروسي المطري، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
- ٩١- محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبرى، دار إحياء التراث العرب، أعد فهارسها رياض عبد الله عبد الهادي، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ٩٢- محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبرى، (الطبقة الخامسة من الصحابة) تحقيق: محمد بن صامل السلمي، مكتبة الصديق، الطائف، (السعودية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ٩٣- محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبرى، تحقيق عبد العزيز السلومي، رسالة دكتوراة، (غير منشورة)، جامعة أم القرى، قسم الحضارة والنظم الإسلامية، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- ٩٤- محمد بن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دراسة طه أحمد إبراهيم، درا الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ٩٥- محمد بن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- ٩٦- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٩٧- محمد بن عبد الله الأزرق، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملخص، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٣، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

٩٨- محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٩٩- محمد بن عبد الله الغبان، فضائل مكة الواردة في السنة، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ١٤٢١هـ.

١٠٠- محمد بن عبد الله اللاوتي الطنجي (ابن بطوطة)، رحلة ابن بطوطة (المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٠١- محمد بن علي بن أحمد الداودي، طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

١٠٢- محمد بن علي الشوكان، فتح القدير الجماع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، دار الخبر، دمشق، سوريا، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

١٠٣- محمد بن عمر الواقدي، المغازي، تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٠٤- محمد بن عيسى الترمذي، الجماع الصحيح «سنن الترمذي»، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ت.).

١٠٥- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت.).

١٠٦- محمد مصطفى الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- ١٠٧- محمد ناصر الدين الألباني، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ١٠٨- محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، المكتب الإسلامي، الدار السلفية للنشر والتوزيع، الكويت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ١٠٩- محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١١٠- محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن الترمذي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، المكتب الإسلامي في بيروت، ط٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١١١- محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، مكتب التربية العربي لدول الخليج، المكتب الإسلامي في بيروت، ط٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١١٢- محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع، المكتب الإسلامي بيروت، لبنان، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.
- ١١٣- مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: خليل الميس، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ١١٤- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١٧، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ١١٥- منى علي السالوس، الجهود العلمية والتعليمية في عصر الخلفاء الراشدين، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.